86

كرم البستاني

أميرات لبنان

مكتبة صادر
بيروت

NEA

اميرات لبنان

الرسوم الثلاثة المثبتة في هذا الكتاب
هي من مجموعات مديرية الآثار اللبنانية

al-Bustanī, Karam

كرم البستاني

/Amīrāt Lubnān/

أميرات لبنان

مكتبة صادر
بيروت

Near East
DS
80
.75
.B87
C.1

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة المناهل : ٥٢ — ١٩٥٠

اميرات لبنان

لم ابحث في تاريخ اميرات لبنان إلاّ لأتخذهن مثلاً أضربه عن المرأة اللبنانية القديمة والحديثة ؛ وعمّا هي عليه من ذكاء وفطنة ، وثقافة وحكمة وبصيرة ؛ وما عُرفت بـه من اقدام على مصاعب الأمور ، ومن مشاركة للرجل في اعماله الوطنية والسياسية والعمرانية ، حتى انها ، على حد قول الاستاذ جرجي نقولا باز فيها: «لم تدع أمراً لم تمدّ اليه يداً وتشغل فيه فكراً، حتى السياسة والسيادة ، مجلى الثقافة ، اصابت منهما حظاً . »

كانت المرأة اللبنانية منـذ اقدم العهود ، ولا تزال ، ذات تأثير عظيم في شتى الحياة اللبنانية، يستوحيها اللبناني في المصاعب ومعقّدات الأمور فتهوّنها عليه ، «وتبث في نفسه اجمل الاماني واسمى الشعور » .

وقد عرف اللبنـاني قدر رفيقته ، فأحبّهـا وأجلّها وأعزّ منزلتها ؛ وما تَغنّي الشاعر اليوناني نونوس ، في شعره ، بمحاسن اللبنانية وآدابها الاّ برهان بيّن على انهـا استحقت المقام الذي رفعها اليه رجلها اللبناني .

وحسبنا ان نراجع التواريخ القديمة لنقف على مبلغ ازدهار ثقافتها في عهد الرومان ، وعلى ما كان لها من أثر طيب في القوانين التي وضعها الامبراطور يوستنيانوس ؛ تلك القوانين التي كان للدماغين اللبنانيين الكبيرين : أوليبيان وبابينيان ، يد بيضاء في إكمالها وتهذيبها .

وفي معجم « لاروس بورتوس » ان جوليا ماميّا والدة الامبراطور الروماني اللبناني اسكندر ساويروس ، وجدته جوليا ميزا كانتا تعاونان هذا الامبراطور في القيام بمهامّ مملكته ، وفي إعادة الامبراطورية الرومانية الى ما كانت قد فقدته ، على يد سلفه ، من عظمة وهيبة .

وكان للمرأة الاسطورية اللبنانية تأثير عظيم في تمدين العالم وتثقيفه وتوجيه ديانته : فأوروبا بنت اجينور ملك صور ، وهي التي تزعم اسطورتها ان جوبيتر خطفها ، وهو في ثوب ثور ابيض ، من على شاطىء صور حيث كانت واترابها ، وسار بها عبر البحر المتوسط ؛ اوروبا هذه هي التي ألبست اسمها قارة بكاملها وعُبدت فيها .

وهرمونيا زوجة اخي اوروبا، قدموس، رمز انتشار الفكر اللبناني والحروف اللبنانية في الغرب ، عُبدت في تلك القارة ايضاً عبادة ابنة حميها .

وكذلك ليبيا عمـــة اوروبا ، ابنة بُـدْ عَشْتَرْت ملك صيدون ، وزوجـة بو صيدون والد اجينور ، مدّنت افريقيـة ومنحت اسمها لجزء منها .

ويطلعنا تاريخ القُدامى على ان الملكة عَمْعَشْتَرْت ، كاهنة عشتروت ، ابنة الملـك أَشْمُنْعَزَر الاول ملـك صيدون[1] ، وزوجة اخيها الملك تبنيت ، تولّت الملك، بعد موت زوجها ، بالوصاية على ولدها القاصر أشمنعزر الثاني – وقد توفي هذا الملك حَدَثاً لم يتجاوز الرابعة عشرة – فأدارت المملكة الصيدونيـة بحكمة وعدل ، وعزّزت الآداب فيها ، فكان تأثيرها عظيماً في الثقافة اللبنانية .

وإيزابَلُ بنت إيتوبعل ملك صيدون تزوّجهـا أحْآب بن عُمري ملك اسرائيل ، فسيطرت عليه بذكائها وجرأتها ، وأدارت مملكته في حياته ، فكانت تكتب الكتب باسمه وتختمها بخاتمـه وتنفذها .

وقد بلغ من سيطرتها عليه وعلى اهـل مملكته أن حوّلتهم

---

١ اشمنعزر (اشمون ساعد) هو رأس السلالة الصيدونية التي يرجح انهـا ملكت، في العهد الفارسي، من سنة ٤٧٠ الى سنة ٤١٠ ق. م. وكان منها خمسة ملوك : اشمنعزر الاول، فابنه تبنيت ، فابنه اشمنعزر الثاني ، فابن عمه بد عشترت (نسيب عشتروت) فابنه يعطون ملك (الملك اعطى).

عن عبادة إله إسرائيل ، وجعلتهم يعبدون البعل وعشتروت ، بعلة الفينيقيين ، وحملت زوجها على ان يبني لهذين الالهين الخرافيين بيوتاً في السامرة ومجدلة .

ولما ثار الصيدونيون على الملك الفارسي أَرْتَحْشَشْتا الثالث ، اراد هذا الملك الغاشم ان يقمع ثورتهم ، فقتل الرهائن المئة الذين كان الملك تنيس ، الصيدوني ، قد بعثهم اليه ، وأتبع بهم الوجهاء الخمسمائة الذين ذهبوا اليه يرجون منه ان يعفو عن مدينتهم .

ولما رأى الصيدونيون فعله ادركوا ان لا مناصَ لهم من الموت ، وفضلوا ان يحرقوا مدينتهم ويحترقوا فيها جميعاً على ان يقعوا في قبضة الملك الظالم .

وقد أثارت النخوةَ والأنفةَ في صدورهم ، فتاةٌ — قد تكون اسطورية وقد تكون حقيقية — تدعى عشتوريم ، مشت امامهم الى النيران الموقدة في المدينة ، وترامت فيها مفضّلة ان تموت حرّة عزيزة على ان تموت سبية ذليلة . وحذا اهل المدينة حذوها ، فماتوا اعزاء كراماً ، ولم يستولِ ارتحششتا ، من مدينتهم ، الا على انقاض ورماد .

وليس شأن اللبنانية في العصور الاخيرة بأقل من شأن اللبنانية المتوغّلة في القدم ، فكثيرات هن اللبنانيات اللواتي

لمعن في التاريخ اللبناني ، وكان لهن اثر جميل في حياة لبنان السياسية والعمرانية .

واذا استثنيت اللواتي خصّصتهنّ بالذكر في هذا الكتاب ، نرى في مذكرات الاستاذ باز اميرة لبنانية عاشت في العهد الصليبي ، هي إيزابلاّ بنت جان دي بلان امير بيروت .

ولدت هذه الاميرة في بيروت ونشأت فيها ، ولما مات ابوها خلفته في امارة المدينة من سنة ١٢٦٢ الى سنة ١٢٨٠ ، وادارت الحكم على افضل ما يكون من حكمة وشجاعة .

وقد ذكر الاستاذ باز نفسه ، في محاضرة له ، عدداً غير قليل من اللبنانيات اللواتي تولّين الحكم في العهد الاقطاعي ، او شاركن ازواجهن فيه ، منهن : زوجة الشيخ جفّال الخازن واخته بدوانية تولتا عهدته في الذوق وعنطورا .

وام منصور زوجة الشيخ فضل الخازن ، التي تولت عهدة كسروان في أيام الأمير بشير الثاني ، ومنعت بحسن سياستها وحزمها ، الجيش المصري من دخول المنطقة الكسروانية واجتياحها .

وجلّول المرعب والدة حمد بك المرعب التي تولّت حكم عكار من قِبَل ابرهيم باشا المصري .

وفاطمة الاسعد ، الكاتبة الشاعرة ، التي شاركت زوجها

علي بك الاسعد في حكم جبل عامل ، وانشأت في قلعة تبنين ملجأ لتربية اليتامى وإيواء المعوزين .

وثمّة نساءٌ غيرهن كان لهن تأثير في سياسة لبنان كمريم الحبيشية المكنّاة بأم حمزة ، زوجة الشيخ فارس حبيش ، اشتهرت بشجاعتها وإقدامها ، وكانت يد زوجها اليمنى في ادارة عهدة غزير ، في ايام الامير بشير الثاني وبعده ، تُوجّه علاقاته بالدولة العثمانية فيصدر عن رأيها .

والاميرة عليا شهاب ، او الست عليا ، كما كان اللبنانيون يدعونها ، ابنة الامير بشير الثالث ، وزوجة الامير افندي رئيس مجلس ادارة لبنان في العهد المتصرّفي ، فقد كان نفوذ هذه الاميرة وتأثيرها عظيمين في الحكومة اللبنانية والمنطقة الساحلية .

ولنا اليوم من ربّة قصر المختارة السيدة النبيلة نظيرة جنبلاط ، زعيمةٌ ذات اياد زكيّة في السياسة اللبنانية، ونفوذ لامع ، وتأثير شديد في الجزء الشرقي الجنوبي من لبنان، ومقام رفيع عند سائر اللبنانيين .

ومن اسمى آثار المرأة اللبنانية انتاجها للبنان ادمغته الكبيرة ومشاهيره من رجال دين ودنيا ، فلو لم تكن عظيمة لما ولدت عظماء ، ولو لم تكن ريّا الدماغ لما ولدت تلك الادمغة الريّا .

وما برحت لبنانيات ايامنا سائرات على نَبالة خطى امهاتهن وجداتهن ، ولنا منهن كواكب لامعات في سماء الثقافة ، ومعالجة الشؤون الاجتماعية والانسانية، وعاملات نشيطات في خدمة وطننا العزيز .

أولى الاميرات

ديدون الصورية

بانية قرطاجنة

يصعب على الباحث في حياة الاميرات اللبنانيات ان يجد في التواريخ اللبنانية ما يمكّنه من معرفة هذه الحياة والحكم عليها ؛ ذاك بأن هذه التواريخ لم تُعنَ بتقصّي أخبار الاميرات عنايتها بتقصّي أخبار الامراء ، أللهم ان لم يكن منهن من لمعن لمعاناً لا يمكن حجبه .

وحتى اللامعات منهنّ لم يكن حظهن من التاريخ الاّ شيئاً يسيراً ، فكان لِزاماً لمن يريد الكلام عليهن ان يلتقط الشذرات التي اوردها عنهن المؤرخون من لبنانيين وغير لبنانيين ، في مساق بحثهم في تاريخ لبنان ، ويجمع ما يلتقطه ويرتبه ليتسنّى له ان يكوّن فكرة عن اثرهن في نواحي الحياة اللبنانية .

ومما لا ريب فيه ان الاميرة اللبنانية لم تكن طاعمة كاسية تقضي ايامها في التجمّل والتزيّن وحسب ، كما شاءت بعض التقاليد ان تصوّرها ؛ وانما كانت امرأة ذكية مقداماً ، غيوراً على مصالح وطنها ، معواناً لزوجها او لولدها ، تُمدّه بأصيل

رأيها ، وتؤيد أعماله وعقائده ، ولو خالفت عقائد بيت ابيها ، وتشاطره سرّاءه وضرّاءه .

وأولى هؤلاء الاميرات اللواتي جعلتهن موضوع كلامي ، نجدها في تاريخ لبنان القديم ، وهي الاميرة عَليشار او ديدون الصورية ، التي بنت قرطاجنة ، واذاعت في افريقية والقسم الغربي من البحر المتوسط ذاك الاشعاع اللبناني الذي بعث الفكر البشري من سُباته ، وفتح له آفاقاً لا حدود لها ، وخدم المدنية خدمات سنيّة لا تُقدَّر بثمن .

اختلف المؤرخون في شأن ديدون : فمنهم من رآها شخصاً حقيقياً غامر مغامرة جريئة كانت نتيجتها أن أُسّست ، في الشمال الافريقي ، تلك المستعمرة ، او الجمهورية اللبنانية ، التي ملأ شعبها التاريخ العالمي بأخبار بطولته ، وسيطرته السياسية والتجارية زمناً طويلاً ؛ ورآها آخرون شخصاً اسطوريّاً ولّدته مخيّلة الشعب الفينيقي ؛ ولعلّ الثوب الاسطوري الذي شاء المؤرخ اللاتيني جوستين ، والشاعر اللاتيني فِرجيل ، ان يُلبساها اياه ، ذاك في تاريخه ، وهذا في إينياذته ؛ ولعلّ ما خصّها به القرطاجيون ، بعد موتها ، من التأليه والعبادة ، هما الامران اللذان حملا القائلين إنها اسطورة على اعتقاد ما قالوه ؛ وربما ندّ عن هؤلاء ان لكل بطل ، من ابطال الازمنة الغابرة ،

حياةً تاريخية ، وحياةً اسطورية ولّدتها مخيّلات الشعوب اعجاباً به وإكباراً لمآتيه . ثم أليست الاساطير اعظم الاسس التي بنيت عليها تواريخ الشعوب القديمة ؟ فلكل اسطورة ، مؤلهةً كانت أم بشرية ، او مزيجاً من مؤلّه وبشري ، أصلٌ تاريخيّ تناولته مخيّلات الشعوب التي تداولته ، فلوّنته وبلورته ، وألبسته ذاك الثوب الخيالي الرائع الذي انتهى الينا .

ومهما يكن من أمر فإن ديدون في عيوننا ، نحن اللبنانيين ، هي فتاة لبنان في عزّتها ، وإبائها ، وشجاعتها ، وطيب شمائلها ، وتضحيتها في سبيل مجد وطنها .

كانت صور ، في منتصف القرن التاسع قبل المسيح ، عروس البحر المتوسط ، وسيدة البحار والتجارة والاستعمار ؛ وصفها النبي حزقيال بالعظمة وسعة الغنى والقوة البحرية وامتداد المتجر ، وسمّاها : « تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة » .

في ذلك العهد ، الذي ازدهرت فيه قوة صور الحربية والتجارية ، كان على العرش الصوري ملك يقال له : بيلوس ، حفيد الملك إيتوبعل ، ملك الصيدونيين ، كاهن عشتروت ، ووالد إيزابَل زوجة أحْآب ملك اسرائيل ، وأمّ عَثَلْيَة التي خصّها الشاعر الفرنسي راسين بمسرحيّته أتالي .

وكان بيلوس ، الذي يطلق عليه جوستين اسم تيرون ،

ويطلق عليه الشاعر الاغريقي ميناندر اسم موتّون ، ملكاً قويّاً شجاعاً ، غزا قبرص والجزائر اليونانية غزوات مظفّرة ، عاد منها بالأسرى والغنائم ؛ وكان شعبه يحبه لحبه لشعبه وعدله وسهره على مصالح وطنه .

ومات هذا الملك عن ولدين : عليشار وبيغماليون، فتولّت عليشار الملك بعده ، لأنها أكبر من أخيها سنّاً ، ثم لم يلبث حزب أخيها ان قوي، فأنزلها عن العرش ورفع عليه بيغماليون، ورضي به الصوريون آملين ان يكون كأبيه عادلاً شجاعاً ، محبّاً لرعيته ، ساهراً على مصالحها .

اما عليشار فلبثت في بيت زوجها ، وكانت متزوجة، عن حبّ ، خالها سيشاربعل اكبر كهنة ملكرت ، واول شخصية في المدينة بعد الملك ، وأعظم مثرٍ فيها . والزواج بين الأهل الادنَين ، حتى بين الاخوة ، كان أمراً معمولاً به عند الشعوب القديمة ؛ وقد يكون الملوك اللبنانيون تأثروا فيه الفراعنة المصريين .

غير ان بيغماليون لم يحقّق أمل الشعب منه، فقد كان ظالماً، مستبدّاً ، شرّيراً ، مستهتراً بالملاهي ، مهملاً لشؤون مستعمرات بلاده في افريقية والقسم الغربي من المتوسط ؛ ولم يكن يهتمّ بتدارك الاستعمار اليوناني ، الذي اخذ ، بعد تقدم البحرية

اليونانية في معارج الرقيّ ، يزاحم صور سيدة البحار والتجارة في مستعمراتها الافريقية ، ويهدد تجارتها في جنوبي اوروبا ، وينافس نفوذها الأدبي والفني .

فرأى سيشاربعل ان في عمل بيغماليون خيانة لمصالح صور ، وتفريطاً فيها ، فنصحه فلم ينتصح ، ولكنه هدّده بانتزاع كنوزه وكنوز معبد ملكرت من يده ؛ وكان بيغماليون يحسد خاله ، صهره ، على ثروته العظيمة ، ويطمع فيها . فثار ثائر سيشاربعل ، وانتصر له جمهور من الشعب الغاضب على سياسة الملك الحمقاء ، فألف منهم ، ومن رجال حزب زوجته عليشار ، كتلة معارضة ، ودعاهم الى مغادرة صور معه ، والانطلاق الى الشمال الافريقي ، من بلاد المغرب ، فينشئون هنالك مركزاً قومياً يكون محطة تجارية لبنانية ، وقاعدة تحمي سواحل المستعمرات .

وينعت لويس مينار ، المؤرخ الفرنسي ، في كتابه « تاريخ الشعوب الشرقية القديمة » ، هذه الحركة بأنها « كناية عن ثورة الشعب على الاريستوقراطية » لأن هذه الطبقة كانت تؤيد الملك في استبداده واستسلامه الى اللهو والاسراف .

ولم تخفَ هذه الحركة على بيغماليون فتوقّع شرّاً ، وخشي ان ينهار ملكه ، اذا قوي حزب صهره ، فدس من

رجاله من اغتال كبار الكتلة المعارضة ، ثم ارسل من قتل صهره ، وهو في معبد ملكرت ، وترك جثته في زوايا الهيكل غارقة بالدماء .

لكن هذا العمل الجائر لم يكن ليقتل الحزب ، ولا ليضعف روحه المعنويّة . فتألّب الباقون من رجاله حول عليشار وزعّموها عليهم ، وطلبوا منها ان تواصل عمل زوجها ، وتتمّ ما كان قد بدأ به .

وكانت عليشار فتاة ذكية جريئة ، لا تهاب الموت ، تحب زوجها وتريد ان تعيش بذكراه ، وتودّ لو يتاح لها الانتقام من اخيها قاتله ، ومنتزع تاج صور عن رأسها ، فلبّت طلب حزبها ، وجمعت اموال زوجها ، وكنوز معبد ملكرت ، واستأجرت في احدى الليالي سفناً ، كانت راسية في ميناء صور ، وحملت اليها ، على رِقبةٍ ، اموالها وطفليها ورجالها وابحرت ميمّمة شطر بلاد المغرب ، فعرّجت في طريقها على قبرص ، ونزلت فيها زمناً قصيراً ، ثم واصلت سيرها الى افريقية .

سارت عليشار برجالها حتى نزلت في مكان يدعى بروجيتانا ، على الشاطىء الغربي من تونس الحالية ؛ وهذا المكان يُعرف اليوم بدُوار الشط ؛ وكان أولَ شيءٍ صنعته ان رفعت مذبحاً

للإله بعل ، إله الشمس ، ولما كان هذا الاله مولعاً بالقرابين البشرية، ضحّت بأحد ابنيها اكراماً له واستدراراً لعطفه عليها، ومساعدته لها في عملها .

وتزعُم اسطورتها[1] ان روح زوجها زارتها في الحُلم ، قبل مغادرتها صور ، وامرتها بأن تذهب برجالها الى المغرب وتبني العاصمة القومية ، واوصتها بأن تضحّي بولديها من أجل إتمام هذا العمل العظيم ، فقدّمت الاول قرباناً للاله بعل ، ثم ضحّت بالثاني حينما بنت مدينتها قرطاجنة ، وجعلت عظامه في أساس البناء .

والتضحية بالاطفال للآلهة ، حين تشييد الابنية العظيمة ، ووضعُ عظامهم في اساساتها ، كانا من الطقوس الدينية عند الفينيقيين ، ومن الأدلّة على ذلك عظام الطفل التي عُثر عليها تحت ركيزة من ركائز جسر نهر بيروت ، يوم وسعت الجسر بلدية المدينة لبضع سنوات خلت .

وبعد ان رفعت ديدون ذاك المذبح ، وقدمت فيه لبعل التقادم والبخور ، شيّدت على تلال جون البحر حصناً سمته برسا ؛ وفي اسطورتها انها اخذت هذا الاسم من اسم الثور

---

١ راجع اسطورة ديدون في كتاب « اساطير شرقية » لمؤلف هذا الكتاب.

الذي قاست ، بقدود جلده ، مساحة الارض التي اشترتها من ياريباس ، ملك جيتول والقبائل البربرية ، وسيد تلك البلاد .

بنت عليشار حصنها على مقربة من أوتيكا المستعمرة الصيدونية القديمة ، لتزاحمها وتنتزع منها سيطرتها ؛ وهناك لقّبها أصحابها بديدون ، اي اللاجئة ، لأنها هجرت وطنها ولجأت الى تلك الارض البعيدة .

هذا الحصن كان نواة لمدينة قرطاجنة ، او قرطاجة ؛ ويجمع المؤرخون ، ومنهم لويس مينار ، ان قرطاجنة شُيّدت ما بين سنة ٨٨٣ وسنة ٨٦٠ ق . م . على انقاض مدينة صيدونية قديمة تدعى غامبا ، في صدر جون البحر ، الذي عرف بعدئذ بجون قرطاجنة ، ويعرف اليوم بجون تونس .

واسم قرطاجنة فينيقي أُخذ امّا من قريتا حادث فيكون معناه القرية الحديثة ، او من قريتا جنتا فيكون معناه قرية الجنات ، سميت كذلك لكثرة ما كان يحيط بها من بساتين . وبناء هذه المدينة على الشاطىء الافريقي كان تتويجاً لأعظم حركة استعمارية خرجت من صور ، فقد كانت هنالك للبنانيين قلعةً حربية ومخزناً اميناً لتجارتهم .

قال المؤرخ الفرنسي ميشيله : «كانت قرطاجنة تمثل العاصمة الوطنية ، لأن مركزها في وسط البحر المتوسط كان يسنّي لها

السيطرة على الشواطىء الغربية ، والضغط على شقيقتها أوتيكا ، وكل المستعمرات الفينيقية في افريقيا ؛ وقد مزجت الفتح بالتجارة ونزلت في كل مكان بقوّة السلاح . »

واننا اذا نظرنا الى تاريخ قرطاجنة رأيناها ، بين أخواتها المدن الفينيقية ، المدينة الوحيدة التي قرنت القوة العسكرية الى النشاط التجاري . ففي قليل من الزمن صارت جمهورية بحرية سيطرت على امبراطورية ساحلية مترامية الاطراف ، قامت مقام صور في الغرب ؛ فخلقت لنفسها مستعمرات في صقلية واسبانيا ، واحتلت طنجة ، فجعلت منها قاعدة عسكرية تجارية ، واستخدمتها لمراقبة المضيق ، المعروف اليوم بمضيق جبل طارق . وقد كانت غايتها من ذلك ان تمنع المنافسين لها من سلوك الطرق البحرية ، تلك الطرق التي شاءت ان تستأثر بالملاحة فيها . وقد أنشأت من اجل هذا عمارة بحرية جعلت طنجة مركزاً لها ، وبعثت بحارتها روّاداً يرودون المحيط الاطلسي لعلهم يجدون ارضاً بكراً تستعمرها[1] .

---

١ اشهر البعثات البحرية الفينيقية ثنتان قررهما مجلس شيوخ قرطاجنة ، ويضعهما المؤرخون ما بين ٤٥٠ و ٣٥٠ ق . م . احداهما المعروفة بطوفة حنون : خرج فيها من قادس وطاف حول افريقية في ستين سفينة وثلاثين الف رجل (كذا) وانشأ في طريقه مستعمرتين : تيمياتيريون ، ويقدر انها كانت حيث تقوم اليوم « المهدية » قرب رباط . وسيرنه ، ويقدر انها كانت بين رأس جوبي

لكن الاميرة اللبنانية لم تتمتع بثمرة جهادها ، لأن جارها يارباس ، الذي ابتاعت منه الارض لبناء مدينتها ، اراد الزواج بها ، فأبت لأنها كانت تريد ان تبقى امينة لذكرى زوجها ، وان تتفرّغ لما من شأنه ان يحقق لمدينتها الازدهار والقوة ، فغضب يارباس ، واقسم ان يقوّض مدينتها ، وزحف بجيشه لمحاصرتها .

ولم تكن بعدُ قرطاجنة قد بلغت من القوة ما تستطيع معه ان تردّ جيش يارباس ، فرأت ديدون ان تقتل نفسها مضحّية بشبابها لانقاذ مدينتها .

وتأخذ اسطورتها هذه الحادثة فتبرزها في ثوبٍ موشّى بالخيال ، ولا غرابة، فالاساطير بنات الخيال .

تقول الاسطورة : ان ديدون ارسلت الى يارباس رسلاً

ورأس بوجادور . وتدل تفاصيل رحلته، التي كتبها ووضعها في هيكل كرونوس في قرطاجنة ، انه بلغ خليج الغينة ، لانه سمى احد الجبال العالية باسم « مركبة الآلهة » وهذا الجبل ينطبق على قرن جبل الكاميرون ، الذي يسميه سكان تلك البلاد بهذا الاسم .

والثانية طوفة هميلكون: طاف فيها حول اقسام اوروبا الخارجية، واستغرقت اربعة اشهر منذ خروجه من قادس حتى وصوله الى جزر سورلنغ ، التي سماها هيرودوت المؤرخ باسم الكاسيتيريد . وكانت الغاية من هاتين الطوفتين استعمار منافذ جديدة لقرطاجنة .

يسألونه ان يأذن لها ببناء مدينة في ارضه ، وان يأخذ ما شاء من المال ثمناً . فردّ ياريباس رسلها خائبين ، لأن ديانته تقضي بأن تكون الارض ، المكوّنة من تراب الاجداد ، ملكاً للاله ملكرت ، إله الغابات ؛ وهذا الاله لا يرضى بأن يباع ، أو يوهب شيء من ارضه إلاّ بإذنه ؛ وقد رفض بلسان هاتفه ان تباع ديدون ارضاً .

على ان ديدون لم تيأس ، وجعلت تفكر فيما تصنع ، فهتف بها هاتف : أنِ الجإي الى الالاهة تانيت ، الالاهة القمر ، فهي توحي اليك بما تصنعين . فأقامت ديدون مذبحاً لهذه الالاهة ، ونضحت عليه الخمر ، واحرقت البخور ، وقربت القرابين عِجلاتٍ ابكاراً ؛ واذا بتانيت توحي اليها : بأن تتحبّب الى ياريباس ، وتعده بالزواج .

ذهبت ديدون الى ياريباس ترفل في جمالها ودلالها ، وحلاها وجواهرها ، ففتنته ، ووعدته بالزواج ، فباعها الارض وبنت مدينتها .

ولما انتهت من بنائها بعث ياريباس يطالبها بوفاء وعدها ، فاعتذرت وعرضت عليه اموالاً كثيرة ليحلّها من هذا الوعد . وكان ياريباس يعلل نفسه بها ، فلما أتاه جوابها غضب ، وشقّ عليه ان تعبث به غريبة لجأت الى ارضه ، فسار اليها وحاصر مدينتها .

ورأت ديدون ان لا مخرج لها ولا مَنقذ لمدينتها إلاّ بأن تموت فداء عنها ، فأمرت بأن توقد لها نار عظيمة ، ثم مشت الى النار ثابتة الخُطى ، حتى اذا دنت منها طعنت صدرها بخنجر وترامت فوق ألسنتها ، فالتهمتها قرباناً عن قرطاجنة وأهلها .

ولما علم يارباس بموتها هدأ ثائر غضبه ، وفك الحصار عن المدينة وعاد من حيث أتى ، فنجت قرطاجنة من شرّه ، وسارت تتقدم اشواطاً في الازدهار الحربي والتجاري .

هكذا قضت هذه الاميرة اللبنانية ضحية زكية على مذبح الوطنية ؛ قضت بعيدة عن وطنها في وطن جديد خلقته لتخدم فيه بلادها الأمّ ، وتقيم لها صرحاً من المجد خالداً .

اميرات العهد المعني

طيبة المعنية

كانت الاميرة طيّبة المعنية أول صلة بين المعنيين والشهابيين، فإن زواجها بالأمير محمد الشهابي – وان يكن زواج حب من جهة الامير وحده ، لانها لم تكن تعرفه ، ولا تتوقع رؤيته ، أو ربما توقعتها حين خرجت لتشهد الموكب الذي كان فيه ، ولكن لم يخطر في بالها انها سوف تحتلّ فؤاده – هذا الزواج اذاً كان اول إصهارٍ سياسي بين اسرتين لم تكن الواحدة منهما تعرف الأخرى إلاّ بالسماع ؛ ذاك بأن المعنيين كانوا من ديار ربيعة ، والشهابيين من الحجاز ، ولم يروِ التاريخ ان اجتمع بعضهما ببعض من ذي قبل ؛ دع ما كان بينهما ، قبل ان يتقيّس المعنيون ، من العداوة العنصرية اليمنية والقيسية .

وهذا الإصهار السياسي، وما تلاه من عديد الزيجات، مكّن أواصر الرّحِم والمودة بين الاسرتين ، فتناستا العصبية اليمنية والقيسية ، وصار الشهابيون عضداً قوياً للمعنيين ، يناصرونهم بنفوسهم ورجالهم في الحروب ، التي دارت بينهم وبين الولاة العثمانيين ، أو بينهم وبين امراء الاقطاعات اللبنانية .

وقد اخلص الشهابيون النيّة والودّ للمعنيين حتى بعد النكبة التي نزلت بهم على أثر اعتقال الامير فخر الدين الثاني ومقتله في الاستانة .

والسلالة المعنية تنتسب الى جدها الامير معن. وقد اختلف المؤرخون في نسب المعنيين ، فزعم بعضهم ، ومنهم الخالدي في كتابه « تاريخ فخر الدين الثاني » ، انهم اكراد من سلالة الايوبيين سلاطين بغداد وحلب ومصر وثغورها .

وجعلهم آخرون مغولاً ؛ فعلَ ماريتي الايطالي في كتابه عن فخر الدين الثاني . غير ان بوجه دي سان بيير فنّد في كتابه « تاريخ الدروز في لبنان » كل هذه المزاعم واثبت ان المعنيين عرب خُلَّص .

ويتفق السيد بوجه في اثبات عربية المعنيين مع كثير من المؤرخين ، متقدمين ومتأخرين ؛ وكان الامير حيدر الشهابي ممن صرحوا بعربيتهم الخالصة في تاريخه . قال في اثناء كلامه على حوادث سنة ١١٠٨ ما نصّه :

« نذكر في هذه السنة انساب الامراء آل معن ، وكيفية ابتدائهم :

« فالامراء آل معن ابتداؤهم من العرب الايوبية ؛ وهم بطن من ربيعة التي كانت منازلها في نجد وديار ربيعة ؛ فقام

من بعض ساداتهم رجل يقال له ايوب ، وكان فارساً شجاعاً ملازماً الغارة على الجواد للنهب والسلب ، وثَقُل جانبه وعظم امره بين قومه ، فنهضوا اليه سادات (كذا) ربيعة واخرجوه حسداً من بينهم ، فرحل وسكن الجزيرة الفراتية ، وتكاثرت بنوه وأخلافهم ؛ وكان يقال لهم العرب الايوبية في ذلك الوقت نسبة لايوب الذي هو اصلهم . ثم قام فيهم ربيعة اميراً من بني ايوب ورحل من الجزيرة ونزل الديار الحلبية ؛ ثم مات وقام ولده معن . »

« وبعد سنين ظهرت الافرنج وتملكت انطاكية ، فجعل الامير معن يغزوهم ويطلق الغارة عليهم بالعرب الايوبية فعظم امرهم . »

وقد يكون انتساب المعنيين ، في اول امرهم ، الى العرب الايوبية هو الذي ضلّل بعض المؤرخين فخلطوا بينهم وبين الايوبيين الاكراد وجعلوهم من سلالتهم ؛ في حين انهم اقدم من السلالة الايوبية التي بدأت بتولي صلاح الدين الايوبي السلطنة في سنة ١١٧١ ، اي بعد قدوم المعنيين الى لبنان بائنتين وخمسين سنة .

وفي سنة ١١١٧ زحف الصليبيون من بيت المقدس الى الجبل الاسود ، — وهو ما يسمى ايضاً بالجبل الاقرع ، يقع

جنوبي نهر العاصي ويطل على انطاكية واللاذقية – وكان يقودهم ملكهم بلدوين ، فأمسك الامير معن عليهم الطريق ، وكان معه جماعة اتراك من اصحاب غازي امير الترك ، فدارت معركة حامية انكسر فيها العرب والترك ، لأن عدد جيش الفرنجة كان ، على حدّ قول الامير حيدر ، خمسين ألفاً ونيّفاً، وكان عدد جيش العرب الايوبية والترك دون العشرة آلاف ، فرحل الامير معن ، على اثر ذلك ، بالعرب الايوبية الى سهل البقاع ونزل فيه ، ثم انطلق الى دمشق ، ودخل على صاحبها طُغْتُكين ، فرحب به وقرّبه اليه ، وخلع عليه ، وحالفه ؛ ثم امره بأن يقوم بعشيرته من البقاع ، ويصعد من لبنان الى جباله العالية المشرفة على الساحل ، ويتخذها حصناً يغير منه على الفرنج النازلين في السواحل .

وفي سنة ١١١٩ نهض الامير معن من البقاع بعشيرته وتوجه الى جبل الشوف .

ويقول بعض المؤرخين إن الامير معناً نزل بعشيرته يوم جاء الشوف ، في بعقلين ، غير ان الخالدي يقول في سياق كلامه على نسب آل معن : «ان الامير معناً سكن دير القمر.»

وسواء كان نزوله في بعقلين ، او في دير القمر ، البلدين الجارين ، فإنه اتخذ الشوف مقاماً له ولعشيرته .

وتروي اسطورة حلولهم فيه : ان الامير معناً ، لما قدم الشوف خيّم في صحراء بعقلين ؛ وكان الجبل ، في ذلك العهد ، من اقطاعات الامراء التنوخيين المقيمين في عبيه ، وهم اول القبائل العربية التي دخلت لبنان ؛ فرأى هذا الامير ان يزورهم ويستوهبهم أرضاً يقيم فيها بعشيرته ، ولاسيّما انه كان مصهراً فيهم ، فقد تزوج ، وهو في الديار الحلبية ، ابنة الامير نعمان التنوخي من معرّة النعمان ؛ فانطلق الى عبيه عاصمتهم ليزورهم فيها .

وكان زعيم التنوخيين ، يومئذ ، الامير بُحتُر ، فرحب بضيفه واكرم مثواه ، وتحالفا على ان يكونا على الافرنج يداً واحدة. وحينما اطلعه الامير معن على ما يريده ، صعد به الامير بحتر الى المُطيَّر — وهو رابية تنهض فوق عبيه يناهز علوها المئة متر أو يُنيف — واستشرف منها الاراضي الواقعة الى الجنوب الشرقي بين نهري الصفا والباروك ، وكانت قفراً بلقعاً ، وقال له باللهجة العامية « شوف » اي انظر الى هذه الاراضي ، فهي لك ؛ فسمّيت منذ ذلك اليوم باسم الشوف .

على ان في هذه الاسطورة ، كما في سائر الاساطير ، موضعاً للنقد ، ذاك بأن تلك الاراضي لم تكن قفراً بلقعاً ، وانما كان فيها قرى كثيرة عامرة ، بدليل ان هذه القرى ، التي لا تزال قائمة الى اليوم ، تحمل كلها اسامي آرامية ، اي سريانية ، تبرهن

على توغّلها في القدم ؛ وقول الخالدي ان الامير معناً نزل دير القمر دليل ايضاً على ان تلك المنطقة لم تكن مقفرة .

ثم ان لفظة شوف – وان اجتهد بعض الباحثين في ارجاعها الى اصول عربية، فجعلوها من فعل الامر « أَشفِ » من اشفى عليه اذا اشرف عليه ، او جعلوها محرّفة عن لفظة الجوف ملفوظة الجيم مع الاشمام بالضم ، او عن لفظة الشعوف ، وهي رؤوس الجبال – هي اقدم من المعنيين بزمان ؛ ويرجح الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في كتابه «تاريخ فخر الدين الثاني» انها تحريف لفظة سريانية من معانيها الشرفة والقمّة، اي رأس الجبل.

عاد الامير معن ، بعد ذلك ، الى قومه في صحراء بعقلين ، فأرسل اليه زهر الدين ، او ظهير الدين ، حفيد الامير بحتر، اناساً من عنده بنوا له وخاصته منازل ، فسكنها واعتزل المضارب التي لا تصلح للسكنى في تلك الجبال الباردة، الكثيرة العواصف والثلوج ؛ وجعل بعد ذلك يحث اصحابه وقومه على بناء المنازل ، فشاع البناء في الشوف وعمرت تلك النواحي .

وقد زعم بعض المؤرخين ان الامير معناً هو الذي اختط بعقلين ، في حين ان هذه البلدة قديمة جداً بدليل اسمها السرياني المؤلف من البـاء ، ومعناها : بيت ، ومن عقلين ، ومعناها عاقلون ، او عقّال . ولهذا الاسم أيضاً معنى آخر هو «المعوجّ»، وقد تكون « المعقيلة » سمّيت هكذا لاعوجاجها .

ولا يعقل ان يكون الامير معن عربياً ويسمّي البلدة التي يختطها باسم سرياني ؛ ثم ان تاريخ الصليبيين يقول : ان هذه البلدة كانت من اقطاعاتهم ؛ ويقول الاستاذ معلوف في تعليقه على الصفحة الواحدة والثلاثين من تاريخه «الامير فخر الدين الثاني» : «ان لبنان كان في عهد الحروب الصليبية إمارات افرنجية» ... الى ان يقول : « واشتهرت إذ ذاك قرى مثل المختارة وبعقلين وجزين ودير القمر » ؛ وقد ذكر بعقلين صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» بين القرى التي كانت من املاك اسرته التنوخية ؛ وكلها ذات اسماء سريانية . فبعقلين اذاً اقدم من المعنيين ، على انها ربما كانت خراباً فرمّمها الامير معن يوم جاءها ؛ او ربما كانت قرية صغيرة فكبّرها بما شيّده فيها وابقى لها اسمها المشهورة به .

تديّر الامير معن الشوف ، واستعمر وحفدته تلك المنطقة اللبنانية ، فتقاطر اليها الناس من انحاء حوران ودمشق وحلب ، وسائر الانحاء اللبنانية ، لما عرف به المعنيون من حسن الجوار ومراعاة الجار والمحاماة عنه ، فازدهرت أيّما ازدهار .

وفي سنة ١١٧٣ قدم الشهابيون من حوران الى وادي التيّم بقيادة زعيمهم الامير منقذ ؛ والشهابيون عرب أقحاح من قبيلة بني مخزوم القرشية . وكان وادي التيّم ، يوم جاؤوه ،

بيد الفرنجة ، فحاربهم الشهابيون واستظهروا عليهم واجلوهم عنه .

وكان يومئذ على الشوف الامير يونس المعني ، تولاّه بعد وفاة ابيه الامير معن في سنة ١١٤٩؛ فعرف بما فعله الشهابيون بالفرنجة ، فأعجب بهؤلاء الجيران البواسل ونهض في حَفْل عظيم الى وادي التّيم ليرحب بهم ويهنئهم ؛ فاستقبله الامير منقذ اجمل استقبال ، وانزله في ضيافته ثلاثة ايام ، وفقاً للتقاليد العربية .

ولم يمضِ زمن على عودة الامير يونس الى بلاده ، حتى دعا الامير منقذاً الى ضيافته ، فلبّى الدعوة وركب بألفي فارس من صُفوة قومه ، وسار يصحبه ولده الامير محمد ، فتى في السادسة عشرة من سنّه ؛ وصفه الامير حيدر « بأنه كان ولداً نجيباً ، وشاباً جميلاً ، فصيح اللسان » .

ولما دخل الامير منقذ الشوف أناخ جماله قرب ينبوع في صروده ، وربما كان الامير يونس قد دعاه الى ذاك المكان المعروف بينبوع الباروك ، لجمال موقعه وطيب هوائه ومائه.

وتقول التقاليد ان المكان الذي أناخ الامير منقذ فيه جماله سمّي الباروك ، وزانَ فاعول من برك الجمل ، والبروك للجمال كالجلوس للانسان .

غير ان بعض الباحثين يقول : ان لفظة الباروك سريانية ومعناها الرابض ؛ وغنيّ عن البيان ان المعنى السرياني يرادف المعنى العربي .

ويحتجون لسريانية هذا الاسم باسماء القرى المحيطة بالباروك كبتلون مثلاً ومعنى اسمها : بيت التلّ الصغير ؛ وكفرنبرخ ، ومعنى اسمها : قرية نُبارك ، وغيرهما ...

استقبل الامير يونس ضيفه الامير منقذاً وولده محمداً على ينبوع الباروك ، وكان قد اعدّ له هنالك وليمة فاخرة ، ومِهرِجاناً فخماً ؛ فلبثوا هنالك ثلاثة ايام يغتنمون اللذات والافراح ، على حدّ قول الامير حيدر في تاريخه ؛ وكان الفرسان ، في اثناء ذلك ، يتبارون بألعاب الفروسية ، وهم على ظهور خيولهم ، والرُّجلان يحدون ، والنساء يُزَغردْنَ ويغنين ويرقصن ؛ عيدٌ لم تشهد البلاد نظيره من ذي قبل .

وبعد مضي الثلاثة الايام سار الامير يونس بضيفيه ورجالهما الى بعقلين عاصمته ، فدخلوها في موكب حافل .

واتّفق ان اطلّت الاميرة طيّبة ، بنت الامير يونس ، من شرفتها ، لتشهد الموكب ؛ وكانت صبيّة في الرابعة عشرة ، ذات حسن فتّان ، وجمال رائع ؛ ويظهر من كلام المؤرخين انها لم تكن مقنّعة ، فحانت من الامير محمد التفاتة فرآها في

رونق بهائها وريّان صباها ، فنزلت في حبّة قلبه ، وافتتن بها ، وصار لا يفكر الا فيها ، وجعل يتوقع ما يسنّي له ان يُلمح لوالدها بما في نفسه منها .

بيد ان للمحبين إلهاً رحيماً يسهر عليهم ويسهّل أمورهم ؛ فبينما كانوا ذات يوم قاعدين الى السِّماط لتناول الطعام ، اخذ الامير يونس لُقمة وناولها الامير محمداً ؛ وتلقيم الضيف على الموائد عادة لا يزال اللبنانيون متمسكين بها حتى اليوم ، وهم يُوفقون اللُّقمة بوصف يحسّنها في عيون الأضياف . هكذا فعل الامير يونس ؛ ناول الامير محمداً تلك اللقمة وهو يقول : خذها ! إنها طيّبة .

وربما كان الامير يونس قد شعر بشيء من أمر الامير محمد ، او انه استحلاه زوجاً لبنته ، فأتاه بهذه اللفظة التي توافق اسمها ليفسح له مجال الكلام عليها .

ومهما كانت الحال فإن الامير محمداً رأى ان الفرصة سنحت له ليُعرب عمّا في نفسه من الاميرة طيّبة ، فتناولها واجابه بآية قرآنية من سورة النور : « الطيّبات للطيّبين » فأدرك الامير يونس مراده ، واجابه ، من فوره ، بآية من سورة الاحزاب : إنّا ازوجناكها يا محمد . فتمّ بذلك زواج الاميرة المغنية بالامير الشهابي .

وثمّة رواية أخرى تقول : ان الامير محمداً بينما كان في دار الامير يونس ، وقعت عينه اتفاقاً على احدى النوافذ ، فشاهد طيّبة فيها ، فاستلب فؤادَه حسنُها وبهاؤها ، وشُغف بها ، ولكنه كتم امره . وذات يوم خرج وأباه والامير يونس الى بعض ضواحي بعقلين ، يطلبون النزهة ، فجلسوا هنالك الى ينبوع تحفُّ به نباتات مزهرة ، فأعجب المكان الامير منقذاً ، فقال : ان المياه عذبة ! واردف ابنه محمد قائلًا : والارض طيّبة ! فأجابه الامير يونس : وأنت طيِّب يا محمد . ورأى الامير محمد ان الفرصة مواتية ليشير الى ما في نفسه من طيّبة ، فقال : « الطيّبون للطيّبات . »

غير ان الامير يونس لم يدرك ما في كلامه من تلميح ، لأنه لم يكن يعلم انه رأى ابنته .

ولما قعدوا الى الطعام تناول الامير يونس لقمة وقدمها الى الامير محمد فقال له : ان كانت طيّبة اخذتها ؛ ثم تناولها من يده وأكلها ، ولكن قصده لم ينكشف ايضاً في هذه المرّة للامير يونس .

ثم انهم ، بعد الطعام ، اخذوا باطراف الاحاديث بينهم ، وكان الامير محمد قد خشي ان يكون الامير يونس قد شعر بأمره وأظهر تجاهله له ، فرأى ان يعتذر اليه عمّا قد يكون

بدر منه ولم يَرُقِ الامير يونس ، فربّت هذا على زنده قائلًا : طِب نفْساً ! انك احسنت في كل ما قلت وصنعت .

وأنّى للامير محمد ان يطيب نفساً، ولم يوعد بعدُ بطيّبة ؟ غير انه لم ييأس ، وعاد الى التلميح ، فطلب من الامير يونس ان يشرح له الآية « الطيّبات للطيّبين » . وكأنّ تكريره للفظة طيّبة كشف مراده للامير يونس ، فابتسم له وقال : ازوجناكها يا محمد .

ثم سأله الامير يونس : ألك اختٌ ؟ فأجاب عنه والده الامير منقذ قائلًا : نعم ! وهي اصغر سناً منه واسمها سعاد ، وقد زوجتها من ولدك يوسف . فأعلن الامير يوسف المعني قبوله ، وتمّ عقد الخطبتين ، ثم زفّت الاميرتان كلّ واحدة الى عروسها ، بعد عودة الامير منقذ وولده الى حاصبيا ، فزاد الحب ، كما قال الامير حيدر ، بين المعنيين والشهابيين . وكان زواج الاميرة طيّبة فاتحة لزيجات عديدة توالت خلال زهاء خمسة قرون ، آخرها الزواجان اللذان كانا السبب المباشر الذي أدّى الى وراثة الشهابيين ، وهم اصحاب وادي التيّم ، لاقطاعات المعنيين في لبنان والحكم فيها .

هذان الزواجان هما زواج ابنة الامير ملحم بن يونس اخي فخر الدين الثاني بالامير حسن الشهابي ، وكان منه الامير

بشير الاول ؛ وزواج اخت الامير احمد ، آخر المعنيين ، بالامير موسى بن منصور الشهابي ، وكان منه الامير حيدر ، جَدّ الامراء الشهابيين في لبنان .

وتفصيل الامر : انه لما توفي الامير احمد ، في دير القمر سنة ١٦٩٧، لم يترك عقباً يخلفه، فانقرضت بموته السلالة المعنية، وبقي لبنان دون امير ، فاجتمع مناصب البلاد ، وهم مشايخ الاقطاعات السبع: الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحّار والغرب ، واختاروا الامير بشيراً الشهابي خلفاً ، لأن أمه معنيّة ، واستقدموه من وادي التّيم وولوه الحكم . فتولاه تسع سنوات توفي بعدها في صفد ؛ قيل : ان ابناء أعمامه ، أمراء حاصبيا ، سمّوه ليصيّروا الحكم الى الامير حيدر ابن بنت الامير احمد المعني ، لأنه أَولى بوراثة جده .

وكان الباب العالي يريد هذا الامير ، لأن الامير حسيناً ابن الامير فخر الدين — وهو الذي بقي حيّاً وحده بعد مقتل ابيه واخوته ، ورفض ان يعود الى ولاية ابيه — كان قد طلب الحكم للأمير حيدر بعد جده الامير احمد، ووافق الباب العالي على طلبه؛ فاستوسق بعد ذلك الامر للامير حيدر ولسلالته من بعده .

فلولا الاميرة طيّبة لما نشأت تلك القرابة الوثيقة العرى

بين المعنيين والشهابيين ، ولا كانت توالت بينهم تلك الزيجات التي زادت صلة الرَّحِم توثّقاً ، ولما كان للاسرة الشهابية حق في ارث المعنيين ؛ وربما كان وجه التاريخ اللبناني قد تغيّر عما صار اليه بعد انقراض آل معن ، او ربما كان الحكم آلَ الى الامراء اليمنيين من آلِ علم الدين بدلاً من الشهابيين ؛ وكثيراً ما تداوله هؤلاء الامراء في فترات من الزمن بمساعدة ولاة الدولة العثمانية ، ومناصرة الاحزاب اللبنانية المعارضة للقيسيين ، تلك الاحزاب التي ناصبت المعنيين اشد العداء حتى آخر امير منهم .

ام قرقماز المعنية

بين وجوه المعنيات وجه كريم سكت عنه المؤرخون إمّا لجهلهم اياه ، او لعدم تدقيقهم في زوايا التاريخ اللبناني ؛ وكلا الامرين لا يدل على حسن العناية في تقصّي الحوادث التاريخية ، ولا في إيرادها .

هذا الوجه هو وجه الاميرة التي غمرها التاريخ اللبناني وبخسها حقّها ؛ ولسنا نعلم عنها ، في اول امرها ، الا انها زوجة فخر الدين الاول ، وأم ولده قرقماز والد فخر الدين الثاني .

وفخر الدين الاول هو ابن الامير عثمان المعني الذي انحصرت فيه الامارة المعنية بعد موت اخيه الامير يوسف عقيماً سنة ١٤٧٠ ، وموت والده الامير ملحم المعني ؛ ثم توفي الامير عثمان في اواخر القرن الرابع عشر ، وانتقلت الامارة الى ولده فخر الدين .

وكان المعنيون قبل هذا الامير يمنيين ، غير ان النزاع الذي حصل بينه وبين الامير جمال الدين الارسلاني ، صاحب الغرب ، من اجل تزعّم الحزب اليمني ، جعله ينفصل عن هذا الحزب

وينحاز الى القيسيين ، ويتولّى زعامة حزبهم، فتقيّس المعنيون كلهم منذ ذلك الحين .

كانت الاميرة ام قرقماز تقيم وزوجها فخر الدين في بعقلين كرسي حكم المعنيين الاول ؛ وعلى ان هـذا الامير رمّم دير القمر بعد ان كانت قد خربت على اثر الحروب الصليبية ، أبقى كرسي حكمه في بعقلين . ولعـلّ الذي جعله يعيد بنـاء دير القمر وجود ينبوع الشالوط فيها، لأن بعقلين لا مياه في ارضها، وانما كان سكانها يشربون مما يتجمع من مياه الامطار في البرك والاحواض ؛ وربما كان السببُ الذي دفعه الى ترميمها وقوعها في سفح جبل عالٍ يحميهـا الريح الشمالية شتاءً ، فاتخذ منهـا مشتىً له مع ابقائه دست الحكم في بعقلين .

وقد شيد في سنة ١٤٩٣ ، وهي السنة التي يرجّح انه اعاد فيها بناء الدير ، جامعاً في وسط البـلدة ، ذا مأذنة عاليـة ، ونقش على بلاطة مثبتة في الجدار ، القائم جنوب الباب الغربي منه ، آية من سورة النور ، وهي : « في بيوتٍ أذِنَ اللهُ ان تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمُه ، يُسبِّحُ له فيها بالغُدوِّ والآصالِ ، رجالٌ لا تُلهيهم تجـارةٌ ولا بيـعٌ عن ذِكرِ اللهِ . » ووضع تحت الآية اسمه وتاريخ البناء في سنة ٨٩٩ هـ ، اي ١٤٩٣ م ، وهذا الجامع لا يزال قائمـاً حتى اليوم هازئاً بأحـداث الايام والسنين ، شاهداً بعظمة بانيه .

وفخر الدين الاول هو الذي لقّبه السلطان سليم الاول العثماني بلقب سلطان البرّ ؛ ذلك ان السلطان سليماً بعد ان تغلّب على ملك العجم اسماعيل شاه صفوي ، في سنة ١٥١٤ ، واستولى على بلاده ، عزم على ان يواصل زحفه الى سوريا ، فتوجّس المماليك الشراكسة ، ملوك مصر وسوريا ، خوفاً منه ، وراعهم ما حُمِل اليهم من انه يسعى الى كسر شوكتهم ، وانتزاع امارة الحج وحراسته من يدهم ، فطفقوا يأتمرون وشاه العجم به ، وأجمعوا على ان ينازلوه معاً ويردّوه عن غايته .

وكان سلطان الشراكسة في ذلك العهد الملك الاشرف قانصوه الغوري ، فبعث رجالاً قطعوا الطريق على القوافل ، التي كانت تحمل المؤن والذخائر من الاستانة الى جيش السلطان سليم في العجم ، فقلّ الزاد والذخيرة عند هذا الجيش ، ونزل به ضيق شديد .

وعرف السلطان سليم ان الملك الاشرف هو الذي قطع الطريق على قوافله ، وتبيّن له ان عمله هذا لم يكن الا تحرّشاً ، فزحف بجيشه الى محاربته .

ولما بلغ الملكَ الاشرفَ زحفُ السلطان ، خرج بالعساكر المصرية الى لقائه ، وكتب الى نائبه في دمشقَ جان بُردي

الغزالي ، ونائبه في حلب خير بك ، ان يوافياه بعساكرهما ، ثم استنجد أمراء لبنان ووادي التيم ، فجاءه الامير فخر الدين حاكم الشوف ، والامير جمال الدين التنوخي حاكم الغرب ، والامير عساف التركماني حاكم كسروان ، والامير منصور الشهابي حاكم وادي التيم ؛ فالتقوا والسلطان سليماً في مرج دابق شمالي حلب .

على ان أمراء لبنان لم يشتركوا ، بادىء ذي بدء ، في القتال ، وإنما اجتمعوا فيما بينهم ، وتشاوروا فيما يفعلون ؟ فأشار عليهم الامير فخر الدين بأن يتريّثوا ليروا لمن تكون الغلبة ، فيقاتلوا معه .

وما لبثت كفّة السلطان سليم ان رجحت ، فانحازوا اليه وقاتلوا معه ، حتى اذا انكسرت العساكر المصرية ، فرّ الغزالي وخير بك وانضمّا بمن معهما ، من الديار الشامية ، الى السلطان ، فتأثر الغوري من خيانتهما ، وانتحر بأن طعن صدره بخنجره ؛ وقيل : ان احد الجنود قتله ؛ وقيل : بل أُغمي عليه لشدة تأثره ، فسقط عن ظهر فرسه ، فداسته سنابك الخيل .

ثم فتح السلطان سليم دمشق في سنة ١٥١٦ ، واستقدم اليه ، وهو في دمشق ، امراء لبنان ، فذهبوا اليه ، ما عدا التنوخيين لأنهم كانوا حلفاً للمماليك الشراكسة ؛ ولما مثلوا

امامه ، تقدّمهم الامير فخر الدين ودعا للسلطان دعاءً بليغاً لقّبه فيه بأمير المؤمنين .

ويظهر من تلقيبه اياه بأمير المؤمنين، ان دعوة هذا السلطان لأمراء لبنان اليه ، كانت بعد فتحه مصر ، وانتزاعه الخلافة من محمد المتوكل على الله ، الثالث ، الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية في مصر ، وآخر الخلفاء العباسيين .

ولمّا أتمّ الامير دعاءه دنا من السلطان وقبّل قفطانه ، فسأل السلطان خيرَ بك عنه ، فأخبره أنه أمير من سكان البرّ يتولى امر قُرى واراضٍ في جبال ضيّقة المذاهب ، وعرة المسالك ؛ فأحبّه السلطان وقرّبه وأنعم عليه ؛ ثم أقرّ ولايته على الشوف ، وأوصاه بحسن السياسة والرّفق بالرعية ، ورتّب عليه الاموال الاميرية ، وأعطاه خطّاً شريفاً بها . وكان من شدة إعجابه به أن لقّبه بسلطان البرّ، فانطلق هذا اللقب عليه، ونفذت كلمته في امراء لبنان ، ووقعت هيبته في قلوبهم .

غير ان حبّ هذا السلطان له لم يردّ عنه حسد الولاة العثمانيين في سوريا ، ولا كيدَهم ومناوأتهم . وقد دفع الحسد ، في سنة ١٥٠٤ ، نائب دمشق الى تجهيز عسكر لمحاربته ، جعل قيادته لرجل يقال له جوان بك ، فالتقاه الامير برجال الشوف الى البقاع ، ودارت بينهما معركة عند جسر كامد ، أو جسر

القرعون ، قتل فيها القائد جوان بك ، وانهزم العسكر الشامي تاركاً في ميدان المعركة ثلاثمائة قتيل .

ورأى خصومه ومناجزوه العداوة ان لا سبيل الى النيل منه بمحاربتهم اياه ، فلجأوا الى الكيد له ليقضوا عليه . وتقول بعض المذكرات الاجنبية : انه لم يمت ، كما قال المؤرخون ، حتفَ انفه ، وانما بعث اليه احد الولاة بمن دسَّ له السمَّ ، فمات مسموماً في سنة ١٥٤٤ ؛ فانتقل بموته حكم الشوف الى ولده قرقماز .

كانت ايام الامير قرقماز ملأى بالفتن والاضطرابات ، فكفاح من اجل النفوذ الحزبي بين القيسيين واليمنيين في الشوف ، وتنازع بين آل عساف وآل سَيفا على الحكم في الشمال ، ولصوص تعيث وتسلب عابري الطرق . ولم يكن للامير قرقماز على شجاعته ، وعزة نفسه ، هيبة والده ولا سؤدده ، ولم يكن امراء لبنان ليطيقوا ان يكون آمرهم ، كما كان ابوه ، فجعلوا يتحيّنون الفرص ليمكروا به ، وينتزعوا منه اقطاعته ؛ وقد تسنّى لهم ان يكيدوه يوم وقعت حادثة نهب الاموال السلطانية في سنة ١٥٨٤ .

وقعت هذه الحادثة في جون عكار ؛ وذاك ان قافلة من الانكشارية كانت تنقل الاموال الاميرية (خزنة السلطان)

من طرابلس الى الاستانة ، فتصدّى لها ، في جون عكار ، بعض لصوص الطرق فسلبوها . ولما كان ذاك المكان تابعاً لاقطاعة يوسف باشا سيفا ، امر الباب العالي جعفر باشا الطواشي ، حاكم طرابلس في ذاك العهد ، ان يصادر آل سيفا على المال المسلوب ؛ ويظهر ان جعفر باشا كان يحمل في نفسه ضغينة على السيفيين ، فلم يكتفِ بطلب المال منهم ، وانما اجتاح ارضهم واحرق منازلهم . ثم رأى ان يتفادى من مؤاخذة الاستانة له بما فعل ، فبعث اليها يتّهم آل عسّاف امراء كسروان ، وآل معن امراء الشوف ، بأنهم يعيثون في البلاد فساداً ، فأمر السلطان مراد الوزير ابرهيم باشا ، والي مصر ، بأن يتوجّه الى لبنان ليقتصّ من المعتدين على امواله ، ومن العائثين فساداً .

قدم هذا الوزير بعسكر جرّار جمعه من مصر وقبرص وحلب ودمشق ، وخيّم من البقاع في مرج عرجموش ، بين قب الياس وكرك نوح ، وبعث الى حكام اقطاعات لبنان ان يسلّموا اليه سالبي الخزنة السلطانية ، وضرب عليهم نفقات جيشه ، وطلبهم الى مقابلته . فبادر اليه كل من الامير محمد ابن جمال الدين اليمني من عرمون الغرب ، وابن عمه الامير منذر التنوخي من عبيه ، والامير محمد بن عساف من غزير ، يقدمون خضوعهم ويبرّئون انفسهم ؛ ويتنصلون من التبعة .

وكان يوسف باشا سيفا قد اتفق وصديقه الشيخ البدوي منصور بن الفُريخ على الصاق تهمة السلب بدروز الشوف ، وحَمْلِ الوزير على مصادرة الامير قرقماز ؛ فأمر الوزير بأن تمسكَ الطرق على الدروز ، وانتظر ان يأتي اليه ابن معن ليبرّىء نفسه ، فلم يفعل . فبعث اليه يستقدمه ، فأجابه بجواب ملؤه التعظيم ، ولكنه رفض الذهاب اليه . فأغضب رفضه الوزير ، فأرسل عسكره ليحرق القرى اللبنانية ويدمرها وينهبها ، حتى وصل الى حدود اقطاعة ابن معن .

ثم انحدر الوزير من البقاع الى صوفر ، فجاءه وفد من عقّال الدروز ووجهائهم يتنصّلون مما عُزي اليهم ، فغدر بهم .

ويقول المؤرخ اللبناني ابن سباط : انه قَتل منهم ستمائة رجل ، وصادرهم بمليون غرش . اما ماريتي الايطالي فيقول : انه قتل ثلاثمائة ، وسلخ جلد حاكم دير القمر ، وهو حيّ ، ولكنه لم يقل من كان ذلك الحاكم .

ومهما كان الأمر فإن غدر الوزير بعقّال الدروز كان فظيعاً ، وفعله بالقرى اللبنانية أفظع .

ورأى الامير نفسه عاجزاً عن ردّ هذه النكبة عن أهل بلاده ؛ وأبت عليه عزة نفسه ان ينزل منزلة الامراء الآخرين ، الذين تركوه وحده وذهبوا الى الوزير يتسكعون امامه

متصاغرين ، فكان نصيبهم الاعتقال . فلجأ الى شقيف تيرون ينتظر ان يشبع الوزير من التحريق والتقتيل والتدمير فيعود من حيث أتى .

وهنا برزت الاميرة ام قرقماز ، من خدرها ، الى ميدان السياسة الوطنية ؛ ولسنا نعلم أكان بروزها بإيعازٍ من ولدها أم انها لم تُطِق رؤية ما حلّ بوطنها من شقاء وويل . وكانت تعلم ان الوزير لم يُثخن في البلاد ذاك الاثخان المُفظع إلاّ لأنه يُريد ان يُرغم ابنها على ان يأتيه صاغراً ؛ ونفس ابنها تأبى التصاغر ولو كان في إبائها كأس الحِمام؛ فاستصحبت نفراً من رجالات الشوف ، وانطلقت بهم الى الوزير ومثلت امامه بجرأة ، وأعلمته بأن ولدها لن يأتي اليه ؛ وعنّفته على اجتياحه الشوف وفتكه في ابنائه ؛ ثم قالت له : ان السلطان سليماً الفاتح اثبت للمعنيين إمارتهم ، وأقرّهم في إقطاعاتهم ، فلن يستطيع أحدٌ ان ينزعها منهم ، او ينتزعهم من لبنان ما دام واحد منهم ، ولو رضيعاً ، في قيد الحياة .

وكأن الوزير أُخذ بجرأتها وبلاغة منطقها وقوة حجتها ، فأكرم مثواها ، وبالغ في احترامها ؛ ثم أمر بأن يؤتى بمناديل الأمان ، فأتي بثلاثة عقد منها واحداً في عنقه ، وأعطى أم قرقماز اثنين ، تعقد واحداً منهما في عنقها ، وتسلّم الآخر

الى ولدها ؛ وقال لها : إنه عفا عن الشوف وتناسى ما كان من موقف اميره تجاهه ؛ فليأتِ اليه يلاقِ ما هو أهل له من تكريم ورعاية .

ولكن الامير قرقماز لم يكن ، على ما يظهر ، ليثق بأمان الوزير ، وربما كان على صواب من عدم ثقته به، ففضّل الموت في مغارته عزيزاً على ان يقف على باب الوزير ذليلًا .

هذا كل ما امكن معرفته عن هذه الاميرة اللبنانية الكريمة، ولا ندري ما صارت اليه بعد موت ولدها ، فليس في تاريخنا اثر لذكرها، ولا بد من ان تكون قد عاشت زمناً بعده، وبعد تولّي حفيدها فخر الدين الثاني ؛ ولكنها على عظمتها وشجاعتها وغيرتها على قومها ووطنها غفل عنها التاريخ ، سامح الله تاريخ لبنان ، ما أكثر ما فيه من نقص واهمال ونسيان !

نسب التنوخية

لعلّ اجمل صفحة في تاريخ اميرات لبنان ، صفحة الاميرة نسب التنوخية ، والدة الامير فخر الدين الثاني . هذه الاميرة، التي كان يلقبها المؤرخون الاجانب بالسلطانة، ويلقبها اللبنانيون بالستّ الكبيرة ، كانت موضع حب اهل لبنان واحترامهم . وقد بلغ من اعجابهم بسديد آرائها ، وبلاغة منطقها ، وحسن سياستها وشجاعتها ، أن انزلوها منزلة الانبياء ، على حدّ تعبير سانتي ، احد مهندسي البعثة التي ارسلها الى لبنان قُزما الثاني غراندوق توسكانا .

ولدت الاميرة نسب في عبيه ، في الاسرة التنوخية ، اول اسرة عربية دخلت لبنان وتولّت الامارة فيه منذ اوائل القرن التاسع الى اوائل القرن الثاني عشر. ولم يذكر المؤرخون زمن مولدها ، ولكن وفاتها في سنة ١٦٣٣ ، عن سبعة وثمانين عاماً ، تدلنا على انها وُلدت في سنة ١٥٤٦ ، وكذلك لم يذكروا من هو والدها ، وانما ذكروا أخاها الأمير سيف الدين التنوخي ، أحد الأمراء التنوخيين القيسيين الأربعة ، الذين

أولموا في عبيه، سنة ١٦٣٣، وليمة للأمير علي علم الدين اليمني، فغدر بهم وقتلهم وأولادهم الثلاثة، فانقرضت بمقتلهم الامارة التنوخية.

وحوالى سنة ١٥٧٠ تزوجت الأميرة نسب الأمير قرقماز سليل الاسرة المعنيّة، فولدت له ولدين ذكرين: فخر الدين الثاني في سنة ١٧٥٢، ويونس في سنة لم يذكرها المؤرخون.

ولما وقعت حادثة سلب الأموال السلطانية في جون عكار[1]، وما تبعها من ويلات على الشوف، توفي الأمير قرقماز في مغارة الشقيف لشدة تأثره وحزنه على ما حلّ ببلاده وابنائها. ويقال أيضاً: ان الوزير ابراهيم باشا اهتدى الى مخبإه، فأوقد في مدخل المغارة حطباً كثيراً أخضر، فامتلأت المغارة دخاناً، وفسد هواؤها، ومات الأمير اختناقاً.

وكان ولداه: فخر الدين ويونس لا يزالان قاصرين، ففخر الدين في الثانية عشرة، ويونس ما بين التاسعة والعاشرة، فخشيت أمهما أن يشي بهما اليمنيون، فيقعا في يد الباشا، فيفتك بهما، ورأت أن تبعدهما عن الشوف وتخبّئهما في مكان حريز.

ويختلف المؤرخون في أمر تخبئتهما ونشأتهما، فالأمير حيدر

---

١ راجع صفحة ٤٨

يقتصر على قوله : إن خالهما سيف الدين التنوخي عضدهما ، بعد موت أبيهما ، وسلم اليهما حكم الشوف وقواهما بالمال والرجال . ويقول أيضاً : انّ الحاج كيوان مدبّر ابيهما حافظ على فخر الدين وحده ، فربّاه في حضن عائلته ، حتى بلغ السادسة عشرة ، أما أخوه يونس فقد صرف خمس سنوات بين حريم رجل درزي من البلاد .

غير ان الرواية المشهورة هي التي ذكرها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في كتابه «تاريخ فخر الدين الثاني» وملخّصها : ان امهما نسب وشقيقها الأمير سيف الدين طلبا من الحاج كيوان نعمه من دير القمر ، مدبّر الأمير قرقماز ، ان يخبئهما في احدى ولايات اليمنيين ، فلا يكشف أمرهما ، لأنه لن يخطر على بال اليمنيين ان هذين الاميرين القيسيين يلجآن الى ديارهم ؛ فحملهما الحاج كيوان قاصداً بهما عكار . وحين وصوله بهما الى انطلياس صادف صديقه أبا صقر ابرهيم ابن الشدياق الخازن ، فاقنعه هذا بأن يترك له الولدين ، وهو يخبئهما عنده . فرضي الحاج كيوان ، وحملهما أبو صقر الى بلّونة ، وهي قرية محاطة بالأشجار ، بعيدة عن الطريق العام ، فأخفاهما فيها ، ورباهما مع اولاده، فبقيا عنده ست سنوات .

وكان خالهما سيف الدين قد ضمن ولاية ابيهما ، فلما

هدأت الحال ، وأمِن عليهما شرّ عمال الاستانة ، وشرّ اليمنيين ، استدعاهما اليه ، وحنّك فخر الدين بشؤون الحكم والادارة ، ودرّب الامير يونس على ضروب القتال ، وأعاد اليهما ولايتهما .

تولى فخر الدين الامارة وهو حدثٌ رخص العود ، وكان الى جانبيه عدوّان قويان : الأمير منصور بن الفُريخ ، أمير البقاع ، ويوسف باشا سَيفا ، أمير عكار ، يترصّده كلاهما لينقض على اقطاعته فيفتك به ويستولي عليها . وما كان هذا الأمر ليخفى على والدته الأميرة نسب ، التي وصفها المؤرخون بتوقّد الذهن ، وأصالة الرأي ، وبُعد البصر في الأمور ، فأخذت هذه الأميرة تسيّر بحكمتها ودرايتها ومقدرتها سفينة ولدها الادارية والسياسية ، بين الأخطار المحدقة بها ، الى ان مكنتها من الوصول الى الميناء الأمين .

قال الرحّالة الانكليزي جورج ساندس في كلامه عليها : « ان ولدها لم يكن يشرع بقتالٍ ، ولا يقدم على عملٍ عظيم الا بعد استرشاده اياها وأخذ رأيها . »

وقال سانتي : « ان الأمير فخر الدين يقرّر ما يعنّ له مستلهماً رأي والدته . »

وكان حبّ الأمير لأمه واحترامه لها وتقديره لمواهبها ،

مما يُضرب به المثل ، فإن اشارة منها ، وهو في عزه وجبروته ، كانت كافية لأن تنزله على ارادتها . ويدلنا على ما كان لها عنده من تقدير واحترام ، أنه لما سافر الى توسكانا سلّم اليها زمام الحكم في غيابه ، لا الى اخيه يونس ، ولا الى ولده علي ، وكلاهما كان أهلًا للاضطلاع بالأمور . ويرتئي الاب قرألي في تاريخه « فخر الدين المعني الثاني » ان الأميرة نسب هي التي ألهمت ابنها خطط ذاك المشروع العظيم الذي جمع به اقطاعات لبنان الخمس عشرة في وحدة هيمن عليها .

ومن عظيم مآتيها ما صنعته ، يوم كان ولدها غائباً في توسكانا ، وذاك ان احمد باشا الحافظ ، والي دمشق ، احد مبغضي فخر الدين ، زحف الى إقطاعة الأمير المعني ، في غيابه ، بخمسين الف مقاتل ، مزوّدين بتسع مدفعيات ؛ فقصد اولاً الى قلعة نابلس ، فعجز عنها ؛ فحوّل وجهه نحو قلعة الشقيف معتقداً ان فيها كنوز فخر الدين ، فامتنعت عليه ، وردّته بمدافعها ومتفجراتها ، التي كانت حاميتها تلقيها على جيشه فتفتك به . وقد مكث حيالها اربعة وثمانين يوماً فلم ينل منها منالاً ، فحنق وعزم على تدمير الشوف . وكأن تدمير الشوف كان الأمر الوحيد الذي يشفي غليل ولاة الدولة العثمانية عند عجزهم عن النيل من امرائه ؛ هكذا ارسل الحافظ رجاله يعيثون في

القرى، ويحرقون البيوت ، ويقطعون الأشجار . واغتنم الفرصة يوسف باشا سيفا عدو المعنيّين الألدّ ، فبعث ابنه حسيناً الى الشوف ودير القمر ليحرق ما شاء ، ويدمّر قصر الأمير المعني ؛ فجزع الشوفيون والديريّون ، وتوجّه المشايخ والأعيان الى الأمير يونس ، وطلبوا منه ان يرسل «الست الكبيرة» الى الحافظ لتتدارك الأمر بحكمتها وحسن سياستها ؛ فانطلقت الأميرة من بانياس ، وكانت فيها مع ابنها يونس ، وذلك في سنة ١٦١٤، وهي في السبعين من سنها ، وصحبها ثلاثون من المشايخ العقّال .

ولما قابلت الحافظ أدهشته ببلاغتها وقوة حجتها ، وعرضت عليه ثلاثمائة ألف غرش تدفعها اليه على ان يرفع الحرق والتخريب عن الشوف ودير القمر ، ويبقي على القلاع ، ويترك البلاد وشأنها.

وكان البرد والمطر قد دهما الحافظ ونهكاه ؛ وجشّمه الأمير علي بن فخر الدين ورجاله الدروز خسائر بالغة بانقضاضاتهم الفجائية المتوالية على جيشه ؛ فلم يرَ منصرفاً عن القبول بما عرضته «الست الكبيرة» عليه ، فدفعت له قسماً من المال ، وكتبت على نفسها صكّاً بما بقي .

ويقول سانتي : «ان الاميرة ، لما دخلت على الحافظ ، أنّبته بجرأة على تعمّده اهلاك رعايا السلطان ، وتخريب البلاد التي تدفع الجزية لخزانة الدولة . »

وبعد ان قبض الحافظ المال وجّه احد اخصّائه ، مصطفى قره آغا ، ليردّ العساكر عن الشوف ؛ فتوجّه الى دير القمر ، فوجد حسين باشا سيفا قد أحرق القرى الشوفية، وبعض بيوت الدير، ورآه يغمس الحرق بالزيت ليحرق قصر فخر الدين فمنعه. هكذا نجا الشوف ودير القمر من الحرق والتدمير بشجاعة « الست الكبيرة » وتضحيتها .

اما الحافظ فإنه انصرف الى دمشق ، وحمل معه الاميرة ، وجعلها في القلعة رهينة الى ان يوفى ما عليها من مال . ويقول بعض المؤرخين ان ولدها يونس دفع هذا المال ضعفين، ولكن الحافظ لم يشأ ان يتركها ، فلبثت سجينة القلعة الى ان عُزل الحافظ عن ولاية دمشق ، وتولاها بدلاً منه جركس محمد باشا بِكلَربكي .

وكان هذا الوالي الجديد صنيعة الصدر الاعظم محمد باشا القبودان ، صديق فخر الدين . فلم يكد يصل الى دمشق حتى اطلق سراح الاميرة ، ثم اعادها مكرمة الى دير القمر، وسلّم اليها رسالة منه الى ولدها فخر الدين، يطلعه فيها على ان صديقه الصدر الاعظم نال له رضا السلطان عنه ، ويدعوه الى ان يعود الى بلاده . لكن الامير بقي متردداً عن العودة الى ان كتبت اليه أمه تقول :

« اننا بقينا محبوسين في قلعة الشام الى ان منّ الله علينا ، فاطلقنا الحكام وعدنا الى دير القمر . وأنا اليوم امرأة كبيرة اريد منك ان تجيء لأراك قبل موتي . » وحلّفته بتربيتها له ان يعود اليها ، فلم يبقَ في وسعه التأخر عن تلبية طلبها .

ولا بد من الاشارة الى ما في رسالتها من رمز الى شخصيتها: شخصية الأميرة المتولية الحكم تتكلم بصيغة الجمع فتبدو في كلماتها العزة والعظمة ؛ وشخصية الأم المشوقة الى ولدها تتكلم بصيغة المفرد فيتلألأ في كلامها حنان الأم ولوعتها لبُعد ولدها عنها .

ولم تكن الاميرة ذات ادارة وسياسة وحزم وشجاعة وحكمة فحسب ، وانما كانت كذلك ذات ثقافة ومعرفة . قال الاب روجه الفرنسيسكاني ، طبيب الامير فخر الدين ، في تاريخه « الارض المقدسة » : « ان الامير كان متضلّعاً من معرفة النجوم والفلسفة الخفية ، التي اخذها عن والدته . » وربما اراد بالفلسفة الخفية الفلسفة الباطنية .

وقد توفيت الاميرة نسب في سنة ١٦٣٣ ، ولها من العمر سبع وثمانون سنة . ولم يُشِر احد من المؤرخين الى المكان الذي دفنت فيه . والمرجّح انها توفيت في قصر ولدها فخر الدين في دير القمر ، فإذا صحّ هذا ، فتكون مدفونة في القبّة المعنية التي لا تزال قائمة حتى اليوم .

وشدّ ما كان تأثير موتها مؤلماً للامير ؛ ويقول المؤرخون : ان حزنه عليها كان شديداً ، وقد تشاءم بموتها لانها كانت عليه بركة ويمناً ، وكانت عوناً له في أعماله ، وآراؤها هداية له ، وخدماتها السياسية عظيمة تجاه امارته ، سواء أفي غيابه كان أم في حضوره .

ولا مناص من القول ان نجم سعد فخر الدين سطع ، بعد وفاة الست الكبيرة، سطعته الاخيرة ، وما عتّم ان انطفأ .

نساء فخر الدين وبناته

كان الامير فخر الدين الثاني أشدّ امراء عِترته تمسّكاً بالزواج السياسي ، الذي كان زيّاً متّبعاً عند المعنيين ؛ فكان على حدّ قول الاب قرألي : « يشدُّ المحالفة باوصال القرابة » اي انه لا يكاد يحالف اميراً من امراء الاقطاعات اللبنانية ، إلا بادله الإصهار تمكيناً للحِلف الذي عُقد بينهما .

واذا استثنينا الشِهابيين ، الذين مكّنت المصاهراتُ بينهم وبين المعنيين أواصر الصداقة المخلصة ، لا نرى في كل من اصهر اليهم المعنيون ، او أصهروا بالمعنيين ، من اخلص لهم الودّ كل الاخلاص إلا عليّاً الظافري ، اخا خاصكية زوج فخر الدين الثاني ، وإلا بلك السَّيفي زوج ابنة الامير علي بن فخر الدين .

على ان هذه المصاهرات ، وان تكن في اكثرها تتّفق وما قاله زُفر بن الحارث ، رئيس القيسيّة في عهد الامويين :

وقد ينبُتُ المَرعى على دِمَنِ الثرى،
وتَبقى حَزازاتُ النفوسِ كما هيا

أفاد منها فخر الدين فائدة جُلّى في تأييد إمارته ، وتحقيق مشروعه في توحيد إقطاعات لبنان .

كان فخر الدين في الثامنة عشرة من سنّه حينما تولّى امارة الشوف بعد أبيه قرقماز ، في بعقلين عاصمة المعنيين الاولى ؛ فكان اول ما فكّر فيه خاله الامير سيف الدين التنّوخي ، وأمه الاميرة نسب ، ان يضمنا سكوت الحزب اليمني عنه ، ان لم يكن في الامكان ضمان نُصرته له ؛ ولن يكون ذلك بسوى إصهاره الى اليمنيين ، فزوّجاه ابنة الامير جمال الدين الارسلاني ، زعيم اليمنية . والامير جمال الدين هو الذي قلنا عنه ، فيما سبق ، انه تنازع والامير فخر الدين الاول رئاسة الحزب اليمني ، فأدّى هذا التنازع الى انفصال فخر الدين عن الحزب اليمني ، ذي الراية البيضاء ، وانضمامه الى الحزب القيسي ، ذي الراية الحمراء ، وتزعّمه اياه .

ولم يذكر لنا التاريخ اسم هذه الاميرة الارسلانية ؛ ولكن المؤرخين الغربيين يلقبونها بالسلطانة لأنها والدة علي بكر فخر الدين ، ووليّ عهده .

ولم يكتفِ فخر الدين بهذه الاميرة ، وانما شاء ان يوسّع نطاق زواجه السياسي ، فتزوج كريمة احد كبار الدروز ، وأحسبُها قيسية ، اراد ، بزواجه اياها ، ان يُقيم التوازن بين

الحزب الابيض والحزب الاحمر ، وان يرفع الشكّ في كونه قد مال الى اصله اليمني .

ويقول كارلو ماشنجي، رئيس البعثة التي أوفدها الغراندوق فنزما الثاني الى لبنان سنة ١٦١٤ ، في تقريره الذي رفعه الى هذا الغراندوق : ان هذه الاميرة هي ابنة احد السناجق ، اي امراء الالوية ، ولكنه لم يذكر اسمها .

وفي سنة ١٦٠٣ تزوج فخر الدين عَلوةَ بنت الأمير علي سيفا ، اخت يوسف باشا سيفا ، وهي ام ولده حسين .وبنته ستّ النصر . وكان يأمل من زواجه بها ان يمحوَ شيئاً مما في قلب أخيها من البغض له والحسد منه ، فلم يستفد أمراً ؛ وانما كان زواجه بها مثيراً لأشدّ عداوة ضُرب بها المثل في البلاد ، حتى لم يكن من حديث إلا عنها ، بدليل ما قاله الشاعر الدمشقي ابراهيم بن محمد الاكرمي :

خَلِّ عنّا ذِكرَ ابن سيفا ومعنٍ ؛
إنما يطلُبُ الغريمَ الغريمُ

ما لنا والحروبَ ، نحنُ أُناسٌ ،
ما لنا طاقةٌ بشيءٍ يضيمُ

أما الزوجة الرابعة فهي خاصكيّة بنت الشيخ ظافر ، شقيقة

الأميرة خاصكية زوجة الامير فخر الدين الثاني

علي الظافري ، الذي كان يتولى صيدا من قِبَل الأمير المعني ، وهي ام اولاده حيدر وبلك وحسن وفاخرة . وكان الأمير شديد الحبّ لها ، لجمالها وصباها واخلاص اهلها ، فكان يحملُها معه أينما ذهب ، حتى انها صَحِبَته وأولادها ، فتياناً وفتياتٍ ، في رِحلته الى توسكانا سنة ١٦١٣ .

وثمّة زوجة خامسة هي سريّة بيضاء ولدت له ابنه منصوراً .

وسهرُ الأمير على راحة نسائه وطُمأنينتهنّ مشهورٌ : فقد أقام لكل منهنّ منزلاً خاصاً بها يزورها فيه . وربما فسّر لنا هذا كثرة الدور المعنية في دير القمر . وكان حينما يذهب الى المواقع يوزّعهن في قلعتي بانياس والشقيف ، ويخصص بخدمتهن والسهر عليهنّ من يثق به من رجالٍ ونساء . على انه كان يحمل معه الى ساح القتال ، في بعض الأحيان ، خاصكيةً ؛ وربما أرسلها الى صيدا تنتظر عودته في دار أخيها . ولما عزم على السفر الى توسكانا وضع علوة في قلعة الشقيف ، وعهد بخدمتها الى مملوكه مُصلّى آغا ، ومعه بُلوك باشي ، اي رئيس مفرزة ، وخمسون جنديّاً ؛ وأنزل الباقيات في قلعتي بانياس ونيحا ، ولكل منهن خدم وحرّاس .

وقد بادلته نساؤه الحب والاخلاص ، ويقول الأب روجه ، طبيبه الخاص في أواخر أيامه : « انه لما اختبأ في قلعة نيحا ، مدة سنتين ، التحقت به علوة السيفية لتموت معه . »

أما مصير هؤلاء الزوجات ، بعد ان خبا نجم الأمير ، وحُمل الى الاستانة ، فكان القبضَ عليهن ، وحملهنّ الى دمشق ؛ فسُجنّ في قلعتها ، حتى قُتل الأمير في الاستانة ، فأمر السلطان مراد الرابع بقطع رؤوسهن ، فقطعت وعلقت على دائرة سور المدينة . ويرجح الأب قرألي ان رؤوسهن لم تقطع ، وانما وُضعت جسومهن في أكياس ، ستراً لهنّ ، وشُنقن شنقاً .

وكان لفخر الدين ثلاث بنات : الأولى ستُّ النَّصر، وهي ابنة علوة السيفية ، بدليل اختيار آل سيفا لها كَنَّة لهم ، فلو لم يكن فيها عرق سيفي لما فضّلوها ؛ والثانية فاخرة ، وهي بنت خاصكية الظافري ؛ والثالثة بنت لخاصكية أيضاً ، حملتها أمها طفلة معها الى توسكانا ، فتُوفيت هنالك ؛ فوضعها ابوها في صندوق اقفله ، واستودعه احدى غرف القصر الذي كان ينزله ، وسدّ بابها بالحجر والكلس ؛ ولما عزم على العودة الى لبنان ، استخرجه وحمله معه ليدفن ابنته في ثرى وطنه .

تزوجت ست النصر حسن بن يوسف باشا سيفا ، ولما تُوفّي عنها تزوجها اخوه عمر . وهذه الاميرة هي التي ردّت بموّال على موّال السيفيّات ، الذي عرّضن فيه امامها بأبيها .

يُروى ان الاميرات السيفيات كنّ ، في اكثر الاحيان ، يزأن ، امام المغنيات المتزوجات بسيفيين ، بدَمامة الامير فخر

الدين وقِصَر قامته ونحافة جسمه ، فحيناً يقلن عنه : لو وقعت البيضة منه الى الارض لا تنكسر . ويقلن حيناً : إن بإمكان رجالهن ان يضعوه في جيوبهم مع مفاتيحهم . وقد ساقهن بغضهن له الى ان غنّين امام بنته ست النصر بهذا الموّال :

جُونا الطوال يا نصلة السكينْ
يا سلسلة مذهّبه ، يا سيف عليّ الدينْ

جونا القصار لا شوراً ولا تدبيرْ
مثل الضفادع يقعُوا في قراني البيرْ

ولست ادري ماذا اردن « بسيف علي الدين » ولعلهن رمَزْن الى ذي الفَقار سيف الامام علي بن ابي طالب، ونسبوا علياً الى الدين اشارة الى جهاده في سبيله .

ولم تكن ست النصر بالتي تسكت عن اهانة ابيها ، فأجابتهن قائلة :

عيّروني بقِصرك ، قلت عود التّبرْ
والحصر خصر الغزال والعنق شامخ شِبرْ

قولوا لأهل الدّكا قولوا لأهل الخُبرْ
القلم يجمع الدنيا ، وطولو فترْ

وموّال ست النصر أرقى لغة وأصحّ قاعدة من موال السيفيات ، والرويّ محفوظ فيه .

ويقال : ان الامير فخر الدين لمّا درى بما دار بين بنته والسيفيات ، غضب وقال بيتيه المشهورين اللذين يهدّد بهما السيفيين بخراب ديارهم :

نحنا قصار بعيون العدو كبارْ ؛
انتو خشب حور، ونحنا للخشب منشارْ

وحقّ طَيبَة وزمزم والنبي المختارْ ،
ما بعمّر الدير إلاّ من حجر عكارْ

وقد برّ بيمينه .

وتزوّجت فاخرة الامير احمد يونس الحرفوش ، ولما توفي عنها تزوجها اخوه حسين. وهذه الاميرة رافقت والدها ووالدتها الى توسكانا . وقد عثر الأب قرألي ، بين الوثائق المِديشيّة، على رسالة مؤرخة في ٢٧ آذار سنة ١٦١٦ ؛ رجّح ان خاصكية كتبتها بالايطالية ، من باليرمو ، في اثناء غياب زوجها، اي حينما عاد الى لبنان تلك العودة القصيرة في سنة ١٦١٥، ووقّعت امضاءها عليها بالاحرف العربية؛ فعرّبها الأب المشار اليه بما يلي:

« سيدتي صاحبة السموّ غراندوقة توسكانا

لا غاية في هذه السطور سوى تقديم آيات الاحترام لسموّك

وتقبيل يديك راجية ان تعدّيني دائماً خادمة لك . وبهذه الصفة اخبرك ان سيدتي دوقة دسونا شاملتني بنظرها ، وغامرتني بانعامها ؛ واسألك ان تبلّغي سيداتي بناتك احترامي وتقبيلهن عني وعن اولادي الف قُبلة ، سائلة المولى ان يمنحك كل خير وعافية .

عن باليرمو ٢٧ آذار سنة ١٦١٦

خديمتك : فاخرة وامها »

وامضاء هذه الرسالة يدلّ على ان فاخرة هي التي كتبتها . ومن المرجّح ان هذه الأميرة تعلّمت الايطالية ، كما تعلمها أبوها ، في السنوات الخمس التي بقيتها في توسكانا . كتبت بالايطالية ، وفضّلت ان توقّع بالعربية ، أو بالأحرى بالتركية ، لأن لفظة خديمت ، مكتوبة بالتاء المبسوطة ، تركية وان تكن مأخوذة من أصل عربي . وتوقيعها على هذه الصورة يجعل للرسالة صفة رسمية ؛ ويمكننا ان نستدلّ بهذه الرسالة أيضاً على ان خاصكية وبنتها كانتا تعاشران الغراندوقات ، وتترددان اليهن ، فتلقيان عندهن كل اكرام واعظام . وأبيّن برهان على هذا أن مرضعة قُزما الثاني ارسلت الى خاصكية ، بعد عودتها الى لبنان ، صندوقاً من الهدايا ، وارسلت اليها دوقة توسكانا كثيراً من التُحف .

وكان امراء الاقطاعات اللبنانية يتهالكون على الزواج ببنتي

فخر الدين، تودّداً لوالدهما وكسباً لرضاه : فلما توفي حسن سيفا عن ست النصر كتب الأمير الى يوسف باشا يطلب منه ان يُعيد اليه ابنته ، فأجابه يوسف باشا قائلاً : « اننا لا نخالف ما يريده الامير ، ولكن لم يمضِ بعد نصف شهر على موت ولدنا ، وارجاعُ زوجته اليكم يكسر خاطرها وخاطرنا . ومرادُنا ان تتلطفوا بالتمهّل مقدار شهر . ولعلّ بعد ذلك تجيزون بتأهيلها بأحد اخوة حسن باشا فهو غاية المراد ، ونحن نكون في رضاكم ، وان اردتم اخذها نُرسلها بعد تلك المدة . » فأذِن الأمير بعد ذلك بزواجها بعمر أخي زوجها المتوفّى .

ولما ائتمر ابن الحرفوش ، زوج فاخرة ، بحميه فخر الدين ، وألّب عليه جيشاً متحالفاً من اثني عشر ألفاً ، غضب عليه الأمير ، وانتزع منه قصر قب الياس ، الذي كان المعني قد اشتراه من وارثي الامير منصور الفُريخ ، واعطاه فاخرة مَهراً ؛ وانتزع منه كذلك فاخرة وارسلها الى أمها في صيدا . ويقول الخالدي : « انه لما أعاد الأمير فاخرة الى زوجها ، بعد انتهاء المشكلة ، أخذها وتوجّه الى بعلبك ، وكأنه ملك الدنيا بحذافيرها ، وحصل له ، من الفرح والسرور ، ما ليس عنه مزيد ، لأنه كان قد قطع الرجاء منها . »

ومصير هاتين الأميرتين ، بعد مقتل والدهما ، غامض كل

الغموض ، فلم يذكر أحدٌ من المؤرخين ماذا حدث لهما ، أبقيت كل واحدة منهما عند زوجها أم توفّيتا قبل موت والدهما ، أم قتلتا مع نسوة ابيهما في دمشق .

على ان الأب اوجين روجه يقول في فصل عرّبه الأب لويس الخازن: « ان امرأته الخصوصية — ولعله اراد خاصكية — وبناته انسحبنَ مع الدروز يوم سقوطه في يد الدولة . » ولم يقل الى اين انسحبن ، وماذا حصل لهن بعد ذلك .

ولم يذكر الأب قرألي شيئاً عنهما ، وانما ذكر احدى الوثائق المديشية التي تقول : « انه لم ينجُ من سلالة فخر الدين إلاّ الأمير حسين ابن علوة السيفية ، أخفاه مملوك كان رفيقه في المكتب السلطاني ، حين لجأ اليه خائفاً من أن يُقتل كأبيه واخوته ، وكتم أمره ؛ وإلا الأمير ملحم ابن الأمير يونس ، أخي فخر الدين ، وبنتاه ، المتزوّجتان مُقدَّمين لمعيّين . » ولا يخفى ان الضمير في بنتيه يعود الى الأمير يونس .

وكل هذا لا يجلو حقيقة ما صار اليه امر ست النصر وفاخرة ، وسكوت التاريخ عن ذكرهما بعد عودة ولاية المعنيين الى ابن عمهما ملحم ، ثم الى ولده أحمد ، يدلّ على انهما ، في ذاك العهد ، لم تكونا في قيد الحياة .

جهان الشهابية

هي الأميرة جَهان (دنيا) بنت الأمير علي الشهابي، صاحب وادي التّيم، ولدت في حاصبيا ونشأت فيها، ولسنا نعلم شيئاً عن سنة مولدها وعن نشأتها، شأنها في ذلك شأن سائر الأميرات.

وكل ما نعلمه ان الأمير فخر الدين، لما بلغ ابنه عليّ الثامنة عشرة من سنّه فكّر في ان يزوّجه، فاصطفى الأميرة جهان ابنة صديقه وحليفه الأمير علي الشهابي، فزفّت اليه صبيّة في سنة ١٦١٦.

ولم يكن حظ الامير علي من هذا الزواج الا الحظ الامثل، فقد كانت الاميرة جهان، فضلاً عن جمالها الرائع وصباها الريّان، متحلّية بأجمل المزايا وأسنى الصفات، شهدت الوثائق التوسكانية، التي نقلها الى العربية الأب قرألي، برأفتها وذكائها وادبها.

وممّا ترويه التقاليد عنها انها كانت مرحة، ملأت بيت حميها فخر الدين حركة وحياة؛ فأحبها حموها حبّاً شديداً، وكان لها تأثير عليه، ولاسيما على زوجها علي، غير ان هذا التأثير لم يكن رائده الا حب الخير.

وهذه الامـــيرة ، التي لم تكن محبوبـة حميها وزوجهـا فحسب ، وانما كانت محبوبة الشعب ايضاً ، كما قال عنها قنصل توسكانا في صيدا ، لم تقدّر لهـا الحياة الطويلة ، فقد توفيت في سنـة ١٦٣٢ ، وهي في زهرة الصبـا . بيد ان موتهـا هذا المبكر جنّبها رؤية خبوّ نجم حميها ومقتل زوجهـا ، فلم تشهد تلك المأساة المؤلمة التي طوّحت بأسرة فخر الدين .

وكان لموتها وقـع موجع في نفس حميها ، فقد أسرع الى صيدا ، يوم وفاتها ، وأقـام في منزل ولده ، زوجها ، يندبها علناً ، لعظم حزنه عليها ؛ ثم بنى لها في بيروت سبيل ماء تخليداً لذكراها .

ويقول ماريتي الايطالي : « ان البعثة التوسكانية هي التي شادت هذا السبيل للأمير تخليداً لذكرى كنّته التي اختطفتها يد المنون في ريعان صباها . »

وقد وصف الرحّالة موندرل هذا السبيل بأنه « أبدع مـا شاهد من نوعه في الامبراطورية العثمانية . »

وذكره القائد فرنسيس دافراتسانو ، قنصل توسكانا في صيدا ، فقال عنه في احدى رسائله : « ان الامير فخر الدين وصل في الثامن من آذار سنة ١٦٣٢ الى صيدا ، قادمـاً من بيروت ، حيث كان بنى سبيلاً تخليداً لذكرى السلطانة ست جهان الدرزية

التي توفيت اخيراً . كانت زوجة الامير علي ، ومحبوبة الشعب لمزاياها الحميدة، وقيل انها كانت ماهرة بحركات النجوم والسحر.»

لقّبها بالسلطانة لانهـــا زوجـة ولي عهـــد فخر الدين . ويستدلّ من قوله ماهرة بحركات النجوم على انها كانت مثقفة تعرف علم النجوم ، وهو البحث في مواقـع الشمس والقمـر وغيرهما من الكواكب ، من حيث يمكن ان تعرف أحـوال العالم وحظوظ الناس . وأما قوله : انها ماهرة بالسحر ، فلعل المراد بالسحر هنـا اتقان الالاعيب التي تحصل عن خفة اليـد ؛ او علم السيمياء ، وهو احداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحسّ .

وقد اخطأ بقوله انها درزية ، لأنها كانت مسلمة .

اما السبيل الذي شاده فخر الدين تخليداً لذكراها ، فـكان يقع حيث تقوم اليوم بناية الفندق العربي ، شمالي سينما اوبرا ، وقد هدم يوم انشئت تلك البناية .

والاميرة جهان لم تلد لعليّ ابناء ، فليس في التواريخ ذكر لذلك .

امبرات العهد الشهابي

ام دبوس اللمعية

هي الأميرة خنساء بنت الأمير فارس أبي اللمع من بسكنتا ؛ لم يذكرها أحد من المؤرخين اللبنانيين ؛ حتى ان الأمير حيدراً نفسه لم يأتِ على ذكرها في تاريخه ، مع انها زوجة أبيه ، وانما ذكرها في كُرّاسة له عنوانها : «نبذة تاريخية في سلسلة نسب الأسرة الشهابية ، من الأمير بشير الأول سنة ١١١٠ هـ ١٦٩٨ م ، الى الأمير بشير قاسم الكبير سنة ١٢٢٠ هـ ١٨٠٥ م» .

وهذه الكراسة عثر عليها الأب ابراهيم حرفوش ، المرسل اللبناني ، بين مخطوطات الكرسي البطريركي الماروني ، ونشرها سنة ١٩٣٠ في مجلة المنارة ، وعلّق حواشيها . وهي ، وان لم تكن تحمل اسم كاتبها ، فان فيها اشاراتٍ تدلُّ على انه الأمير حيدر . ومن هذه الاشارات قوله في مواضع كثيرة منها : «كما أتى تصريح ذلك في تاريخنا الأكبر .»

وثمة دليل آخر على انه صاحبها ، هو معرفة كاتبها لأسماء نساء الشهابيين واللمعيين وبناتهم ، حتى النساء اللواتي لم يُرزقن

أولاداً ، والبنات اللواتي توفين صغيرات ؛ فإن معرفة مثل هذه الامور الداخلية لا تتأتى إلا لمن كان من صُلب الاسرة ، والامير حيدر شهابي بأبيه لمعي بأمه ، فهو أولى من سواه بمعرفتها .

على انه ، وان يكن قد ذكرها ، أهمل ذكر تاريخ مولدها ، وهو شيء لا يُلام عليه لان الاهتمام بخصوصيات النساء لم يكن من عقلية أيامه .

اشتهرت الاميرة خنساء بكنيتها ام دبوس ، كُنّيت بها ، كما قال الامير حيدر في نبذته ، لمزيد فراستها ، وعلوّها ، اي وعزة نفسها .

وثمة تقليد قديم بين اللمعيين يقول : انها كنّيت ام دبوس ، لان لصوصاً تسللوا الى قصر أبيها ليلاً ، وكان كل من في القصر نائماً . فاستيقظت على حركتهم ، وكانت صبيّة لا تكاد تتجاوز الثانية عشرة ، فلم تُذعر ، وانما تناولت دبوساً من دبابيس أبيها وانقضت عليهم تضربهم به ؛ فذعروا منها وفروا هاربين ، وانطلقت تعدو في اثرهم حتى فاتوها ، فعادت الى القصر .

وكان الخدم قد استيقظوا على الضجة ، فخرجوا يتأثرونها فأدركوها ، وهي عائدة ودبوسها في يدها ، فكنّوها ام دبوس ، فانطلقت عليها هذه الكنية .

تزوّجت هذه الاميرة الامير احمد ابن الامير حيدر صاحب معركة عينداره ، التي دارت رحاها بين القيسيين واليمنيين . ذلك انه في سنة ١٧٠٩ ، بعد تولي الامير حيدر حكم الشوف بسنتين ، اشتدّت شوكة الامراء آل علم الدين ، رأس العشيرة اليمنية ، فأظهروا نفوسهم ، وظاهَرهم الامراء الارسلانيون ، أصحاب الغربين الاعلى والادنى ، ومال اليهم بعض القيسية ؛ وكان من أمرهم هذا ان ازعجوا الامير حيدراً من دير القمر ، وتولى الحكم منهم الامير يوسف علم الدين واخوه الامير منصور .

والامير يوسف هو الذي شتت الحبيشيين ، بعد توليه الحكم ، لعصيانهم اياه وفتكهم بجنوده ، وأحرق غزير في سنة ١٧١١ ؛ يدل على ذلك التاريخ الشعري القائل : « ندمت غزير . »

اما الامير حيدر فانطلق الى الهرمل ، واختبأ هنالك في مغاور يقال لها مغاور عزرائيل . وكان المشايخ آل الخازن يرسلون اليه المؤن سراً ، خشية ان يعلم اليمنيون مخبأه ، فلا يسلم منهم ، ولا يسلم الخازنيون من شرهم .

ولبث مختفياً هنالك حتى استعاد الحزب القيسي قوّته ونشاطه في سنة ١٧١٠ . فخرج من المغاور ، وتوجّه الى المتن فنزل على المقدّم حسين أبي اللمع ؛ ثم طفق يراسل زعماء حزبه

منبئاً اياهم بعودته ؛ فتسايلوا اليه من كل صوب وناحية ، وعقدوا اجتماعاً ، في رأس المتن ، تباحثوا فيه بأمر اليمنية واعادة الامير حيدر الى الحكم .

وعلم اليمنيون باجتماعهم فاستعدوا للحرب والانقضاض على القيسية . ولكن القيسيين بيّتوهم ، ليل الجمعة من شهر محرّم سنة ١١٢٣ هـ ١٧١١ م . فاعتركوا في عينداراً ، وكانت سيوف اللمعيين قُوام المعركة ، فقتل خمسة من امراء آل علم الدين ، وانهزم اليمنيون .

ويقول الامير حيدر في تاريخه : « ونزح كل من كان يمنيّاً من لبنان ، وخربت أوطانهم ، وباد ذكرهم من الشوف ، ولم يبقَ احد يذكر أنه يمني . »

ثم كافأ الامير حيدر زعماء حزبه بأن وزع عليهم الاقطاعات واطلق لقب المشايخ على بعض الاسر الدرزية كآل نكد وآل تلحوق ، واطلق لقب الامارة على اللمعيين لبطشهم في تلك المعركة .

وثمّة تقليدٌ محفوظ في صليما، وهو ان رجلاً نظر الى المقدّم حسين ، وهو يفتك باعدائه ، فقال له : سلمت يدك يا مقدّم حسين ، فغضب ، وضربه بسيفه قائلاً : أأقتل ثلاثة امراء وتقول لي يا مقدّم ؟

غير ان الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف عثر، أثناء ابحاثه، على رسالة من الامير احمد المعني، بعث بها الى الامير فارس ابي اللمع، والد ام دبوس، يلقبه فيها بلقب الامارة، وذلك حيث يقول: «الى حضرة الأخ العزيز الامير فارس المكرّم حفظه الله تعالى.» وقد اثبت الاستاذ المعلوف هذه الرسالة في كتابه «تاريخ الامير فخر الدين الثاني» مبرهناً بها على ان اللمعيين، وهم عرب من قبيلة ابي الفوارس، كانوا امراء قبل معركة عيندارا.

وهنالك براهين أخرى تدل على ان امارتهم سابقة لمعركة عيندارا، اثبتها الأب اسطفان البشعلاني في كتابه «تاريخ بشعله وصليما» مع كتاب الامير احمد معن المارّ ذكره: منها تاريخ إنشاء دير مار جرجس في قرية الحرف، في المتن، وهو ظاهر الى اليوم على بلاطة فوق باب الكنيسة، وهذا نصّه: «بسم الحي الازلي الدائم الابدي وبه أستعين. انشأ هذا الدير المبارك، إن شاء الله، برسم طاعة الله وعنايته حضرة الجناب العالي المكرّم الامير عبدالله ابن المرحوم الامير قيدبيه الشهير بابن ابي اللمع، عفا الله عنه، بتاريخ ذي الحجة من شهور اثنين ومئة وألف (١٦٩١ م). عمل المعلّم جرجس والمعلّم سمعان والمعلّم جرجس الشامي.»

ولا بد من القول ان بناء هذا الدير يسبق معركة عينداراً بعشرين سنة ، وان الامير عبدالله ، لما بناه ، لم يكن اللمعيون قد تنصّروا بعد ؛ وهذا دليل على ما كان في تلك العهود من الاتفاق بين الدروز والمسيحيين ، وعلى انعدام التعصّب الديني.

اما لقب المقدَّمية الذي حملته اسر لبنانية ، ولا يزال بعضها يحمله حتى اليوم، فقد تولّد في لبنان منذ عهد العبّاسيين : وذلك ان سوريا كانت في ايامهم فريسة لحروب متواصلة بين العرب والبيزنطيين ، والسلاجقة والفاطميين ، وظلّت مدنها واراضيها ، خلال ثلاثة قرون ، طعمة للسيف والنار ، وعُرضة للتنقل من يد غازٍ الى يد آخر . فرأى موارنة الجبل ، وهم تُجاه هذه الاحوال ، ان يقوّوا تنظيماتهم العسكرية ليتمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم الداخلي النسبي ؛ فطفق كبار مُلاّكي الأراضي، من أمراء ومشايخ ، ينتحلون صفة الرؤساء العسكريين، ويتقدمون رجالهم الى الحرب ، فاكتسبوا بذلك لقب المقدَّمين، اي قواد الجند ورؤسائهم ؛ وتحوّلت الاريستوقراطية الأرضية الى اريستوقراطية عسكرية قوامها الامراء والمشايخ ، وانتشر لقب المقدّم بين سائر الطوائف .

هذا كان اصل الاقطاعات في لبنان؛ اقطاعات لم تكن متماثلة، وإنما كان ، لكل منها ، حياة خاصّة . فتألفت ، من جراء

ذلك ، قومية موضعية ، الى جانب القومية الوطنية ، التي كانت تظهر ظهورها القويّ تِلقاء العدو المشترك .

فلقب المقـدَّم اذاً اكتسبه اللمعيون من قيادتهم لرجـال إقطاعاتهم . ولعلّ كثرة تلقيبهم بـه جعلته اسْيرَ على الالسنة من لقب الامارة .

ظلّ الامير حيدر ، على ظفره باعدائه ، يشعر بأنه في حاجة الى اعوان وأنصار يدينون اخلاصهم له ليتمكّن من حكمه ؛ ولاسيما انه لم تكن بعدُ قـد سُنِّيت له السيطرة الحقيقيـة على الأمراء والمشايخ . فهذه السيطرة لم تتحقق له الا بعـد زمن ، حينما زرع ، بدهائـه ، بذور الفتن بينهم ، فتشعّبت آراؤهم ، وتنابذوا ، فتغلّب عليهم ، وتمكّن منهم .

ثم ان بعض مشايخ البـلاد كانوا يميلون الى عزله وتوليـة الامير احمد بن منصور الشهابي ؛ وقد تخلص الامير حيدر من هذا المزاحم بأن دعاه من راشيا الى دير القمر ، بحجّة انه يريد تزويجه بنته ، وفيما هو راقد ليـلاً ، ارسل اليه ولديه ملحمـاً واحمد ، فاغتالاه في مضجعه .

كل هذه الاحوال كانت تحمل الامير حيدراً على ان يجـد سنداً يتّكىء عليه . ولمـا كان اللمعيون قد اشتدّ نفوذهم في الجبل ، رأى من أصالة الرأي ان يصاهرهم ، فليس كالمصاهرة

ما يوثّق عُرى المودّة بين الأسر ، وليس كالمعيين ، في ذاك الحين ، انصارُ أقوياء يَقِفُهم في وجوه من كانوا لا يزالون يبيّتون له العداوة؛ فبادلهم الإصهار هو وولداه ملحم واحمد، وكان من حظ احمد الاميرة ام دبوس .

عاد الامير حيدر الى دير القمر ، بعد فراره منها ، وعاد معه الشهابيون ، ولا ريب في انه واسرته كانوا ينزلون في المباني المعنيّة ، لانه لم يكن قد تسنى لهم بعد ان يبنوا دوراً جديدة؛ ونزل الأمير احمد ، كما يقول الامير حيدر، « في السراي القديمة التي هي تجاه الشالوط . »

والرأي الارجح ان الامير حيدراً عنى بالسراي القديمة الدارَ المعنيّة ، ذات البوّابة الاثرية ، التي كان يملكها جدي لأمي ، المرحوم انطون عيد البستاني ، وهي اليوم ملك حفيده جورج مخائيل عيد البستاني . فهذه الدار كانت تطلّ من ناحيتها الغربية على السوق التي كان فيها مصب الشالوط في الزمان القديم . فمصب هذا الينبوع اذاً كان في سوقٍ أعلى من ساحة النكدية التي هو فيها اليوم ، وكانت تسمى باسمه ، فلما نُقل الى هذه الساحة اكتسبت اسمه ، وسمّيت السوق التي كان فيها سوق الصباغين ، ولم يبق منها الآن الا بعض دكاكين مقفلة .

نزل الامير أحمد وزوجه ام دبوس ، ومعهما صغيراهما مراد

وعمر ، في هذه الدار المعنيّة القديمة . ولكن هذين الطفلين لم تقيّض لهما الحياة ، فقد ماتا في طفولتهما ؛ فحزنت امهما عليهما حزناً شديداً ، وساقها حزنها الى التشاؤم بالدار ، توهّماً منها انها شأمت عليها فافقدتها ولديها ، فعوّلت على تركها . ويظهر انه لم يكن هنالك دار فارغة يمكنها ان تتحول اليها ، فالتمست من سلفها الامير ملحم ، وكان قد تولى الحكم بعد ابيه الامير حيدر ، أن يبني لها قصراً جديداً . ولكنه أبى تلبية ملتمسها ، فغضبت وانطلقت الى بعقلين تؤلب الناس وتدعوهم الى الانتقاض عليه وازاحته عن الحكم . ويقول الامير حيدر في نبذته : « انها حتمت وجزمت أنها لا يمكن ان ترجع الا الى دار جديدة . »

وعلى ان الامير ملحماً كان ، كما نعتوه ، قاسياً لا يعفو من مذنب الا بعد عقاب ، لم يشأ ان يخاشنها ، او ان ينتقم منها ، مخافة أن يبعث حزباً معاكساً له ؛ ولاسيما ان ام دبوس لمعية ، ولن يكون اللمعيون راضين عن أذاة بنتهم ، ولم يكن هو يريد ان يفقد اعوانه ، حين كانت العناصر المعادية له في الشوف وخارج الشوف تتربّص منتظرةً سانحةً لتنبعث من رقدتها . فرأى من حسن السياسة ان يقضيَ سؤلها فشرع لها ، على حد قول الامير حيدر ، « في بناية الدار المشيّدة على التلة بقرب سراي الحكم التي كانت للأمراء آل معن . »

وتدلّ بلاطة الى جانب البوابة الداخلية من هذه الدار على انه فُرغ من بنائها سنة ١١٦٩ هـ اي سنة ١٧٥٥ م . وقد نقش على البلاطة هذه الكلمة : « الله الكافي من توكل عليه كفاه . »

ولا تزال هذه الدار قائمة ، وتعرف اليوم بقصر أبي عساف ، نسبة الى أبي عساف جرجس باز الشهير ، اشتراها من الامير احمد زوج ام دبوس . ولما اغتال الامير بشير الثاني في ٥ ايار سنة ١٨٠٧ ابا عساف في دير القمر ، واخاه عبد الاحد في جبيل ، وضع يده على القصر وأمر بإخراج السيدة لولو ارملة أبي عساف واولادها داود واخوته ، منه ؛ ولكن السيدة لولو كانت امرأة مقداماً ، فانطلقت الى الاستانة ، واستصدرت امراً من السلطان سليم الثالث باعادة القصر الى أولادها .

على ان هذه الدار الجديدة لم تعوض ام دبوس ممن فقدتهما بسوى بنتين : تاجٍ ووردٍ . وربما كان إيناثها هو الذي دفع زوجها ، بعد ان اسنّ وشاخ ، الى ان يتزوج الاميرة سعود بنت الامير مراد اللمعي ، لانه كان يريد ان يترك بعده وارثاً ذكراً ، فولدت له سعود الامير حيدراً المؤرخ .

وزواجه هذا كان ، ولا بدّ ، سبب ما وقع من الشقاق بينه وبين ام دبوس . فهذه الاميرة ، وشأنها شأن كل امرأة سواها في النفور من الضرائر ، لم تتحمّل ان تدخل ضرّة

منزلها ، وان تكن ابنة عمها ، فتذمرت ، ولاسيما بعد ان ولدت سعود ولداً ذكراً ؛ تذمرت ودبّت عقارب الحسد والغيرة في نفسها ، وخيّل اليها ان سعود تغالبها بطفلها على النفوذ عند زوجها ، وقد تغلبها؛ فحملتها عزة نفسها على هجران هذا الزوج ، فذهبت الى عينطورة الذوق تمضّي فيها ما بقي لها من الايام ، ونزلت في مدرستها المارونية .

وقد ترك المطران يوسف المريض ، المتوفّى سنة ١٨٨٦ ، مخطوطة صغيرة حفظت بين مخطوطات الكرسي البطريركي الماروني ، ذكر فيها ما عرفه بالنقل والتقليد عن ام دبوس فقال ما ملخّصه : « كان سبب مجيء ام دبوس الى عينطورة لنفور وقع بينها وبين زوجها الامير أحمد ؛ فنزلت في المدرسة المارونية ، وهي مدرسة بناها الأب بطرس مبارك ، سنة ١٧٤٠ ، في ارض اعطاه اياها الشيخ سليمان الخازن المكنّى بابي علي ، فوق مدرسة الآباء العازاريين . وكانت ، يوم نزلت فيها ام دبوس ، خالية . وتقول التقاليد : انها بنت فوق بوابة المدرسة بعض غرف ، أمر البطريرك ، بعد موتها ، بهدمها مخافة ان يدّعي وارثوها ملكية المدرسة . »

واتخذت ام دبوس كاتباً لسرّها يوسف انطون الرزّي ، فمرض زهاء سنة مرضاً ثقيلاً ، فلقبته بالمريض ، وانطلق هذا اللقب على اسرته من بعده .

وقد توفّيت ام دبوس بعد زوجها الامير احمد المتوفى سنة ١٧٧١ ، ولم يذكر احد سنة وفاتها . ويقول شيوخ تلك المنطقة الكسروانية : انها دُفنت في غابة الصنوبر في عينطورة.

أميرة شهابية

شمس الشهابية

هي ابنة الأمير محمد الشهابي ، أخي الأمـــير نجم حاكم حاصبيا ؛ وكان يقال لها شمس المديد ، وهذه اللفظة آتية ، على الأرجح ، من قولهم : مـدّ النهارُ اذا ارتفع ، فيكون معنى اسمها : شمس النهار المرتفع .

اختلف الرواة زمناً في اسمهـا : فقالوا حبوس ، وقالوا شمس . وسبب ذلك انها بعد أن ولدت من زوجها الثاني الأمير بشير الكبير ، بكرها الأمير قاسماً تكنّت به ، واخذت توقع امضاءهـا بأم قاسم ؛ وكانت معاملاتها كثيرة لعظم ثروتهـا ، فغلبت كنيتهـا وتنوسي اسمها . ولكن بعد وفاتها عـثر على وصية منها موقعـــة بامضاء شمس عُرف منها حقيقة اسمهـا واسم والدها .

ولدت هذه الأمـيرة في حاصبيا ، ولا نعـلم سنة مولدها ، ولمّا شبّت تزوّجت ابن عمها الأمير بشير بن نجم ، أخا الأمير اسماعيل ، الذي تولى حكم حاصبيا ووادي التّيم بعد وفاة أبيه ، فولدت له ولدين : الأمير نسيماً والأميرة خدّوج .

وكان على ولاية جبل لبنان، في عهد ولاية الامير اسماعيل، الأمير يوسف ابن الامير ملحم شهاب ، وهو ابن الأميرة امون اخت الأميرين اسماعيل وبشير المشار اليهما ؛ وكانت العلاقات في أول الأمر بين الأمير يوسف وخاليه على أفضل ما تكون علاقات : ذاك بان الأمير يوسف لم يكن يطمح الى مزاحمة خاله على حكم حاصبيا ، لأن خاله كان رجلًا قويّاً اوقع هيبته في قلوب أهل بلاده ؛ فخافوه ، حتى لم يفكروا يوماً بالانتقاض عليه ، « وعظم اسمه » على حدّ قول الأمير حيدر . ثم لأن هذين الأميرين ، اسماعيل ويوسف ، لم يكونا يطمعان في ولاية ابن اختهما ، لأنهما كانا راضيين بمنطقة حكمهما الحصبة ؛ تلك المنطقة التي مكّنتهما من جمع ثروات عظيمة ، وجعلت الأمير اسماعيل ، على ما قال الأمير حيدر ، يقتني من الخدم والخيول ما لم يقتنه امير سواه في أيامه . وما من شيء كان يوقع العداوة بين الامراء ، حتى الاخوة منهم ، مثل المزاحمة على كرسي الولاية ؛ عداوة لم يكن يطفىء نارها إلا فتك بعضهم ببعض .

وقد خدم الأمير اسماعيل ابن اخته الأمير يوسف خدمات جُلّى ، اظهر فيها حبه له وتأييده لحكمه : فهو الذي حمل اليه ، الى دير القمر ، خبر تنازل عمّه الأمير منصور له عن الحكم ؛ وهو الذي ردّ المتاولة عن ان يقضوا على رجاله في موقعة

النبطيـة ، التي خسر فيها الأمير يوسف زهـاء الف وخمسمائة رجل . ولما انتقض على الأمير يوسف ابناء أعمامه ، بعـد ان وضع يده على أملاكهم ليدفع المئة الف غرش ، المتأخرة عليه ، لحسن باشا قائد العمارة العثمانية ، أرسل الأمير اسماعيل أخـاه الأمير بشيراً ، فأصلح بينهم وبـين الأمير يوسف وأعـاد الى النفوس الطمأنينة والثقة .

ولبثت العلاقات الطيّبة بينهم الى ان دفع الطمع الأمـير يوسف الى ان ينتزع من خاله مرج عيون ؛ وكانت وحدها ، من اقطاعات الأمير اسماعيل ، تابعة إيالة صيدا ، في حـين ان سائر وادي التـيم كان تابعاً إيالة الشام ؛ فذهب الى الجزار في سنة ١٧٨٣ يتوسّل اليه ، كما قـال الأمير حيدر ، ليسلّم اليـه حكم تلك المنطقة . وكان أعظم ما يهمّ الجزار ان يلقي الشقاق بين الأمراء واحزابهم تلافياً لتعصبهم عليه ، فيحتربون فيما بينهم ويتزاحمون على مرضاته بالمال . وكان يُمـدُّ بجنوده يوماً هـذا الأمير ويوماً ذاك ، فيتخلص هكذا من اتحـاد الامراء عليه ومناوأة البلاد له .

هذه السياسة التي يقولون لها : سياسة فرِّق تَسُد ، هي التي جعلت الجزّار يُنعم على الأمير يوسف بمرج عيون ويوقع الشر بين الخال وابن اخته .

وكانت مرج عيون اهراء الأمير اسماعيل ، ومصدر ثروة له ، تغلّ في كل سنة نفقات أهله وأبناء أعمامه ، فشقّ عليه ان تفلت من يده . على انه لم يشأ ان يتعجّل العداوة ، ورأى أن يتدارك الأمر بما هو أجمل بآصرة الرحم ، فشخص الى دير القمر يتودّد الى الأمير يوسف ويتحبب اليه ، ووعده بأن يعطيه خمسة وعشرين الف غرش ، اذا ترك مرج عيون له ، فلم يجبه الأمير يوسف الى طلبه . ويقول الأمير حيدر : انه ألحّ عليه بالسؤال حتى انه قبّل قدمه ، ولكنه لبث مصرّاً ، فرجع الأمير اسماعيل الى حاصبيا خائباً .

ولم يكن الأمير اسماعيل لينام عمّن يطمع في بلاده ، فقد فتك بأخيه الاكبر الأمير سلمان لأنه خطر على باله ان يزاحمه على حكم وادي التيم ؛ فانطلق الى عكا ، وطلب من الجزار ان يولّيه حكم الشوف ، ووعده بثلاثمائة ألف غرش ؛ فلم يرفض الجزار ، ولم يكن من عادته رفض المال ، وانما طلب منه ان يشرك معه في الحكم احد الشهابيين الساكنين في الجبل « ليستأنس به الرعايا». فدعا الأمير اسماعيل اليه ابن اخته سيد احمد، أخا الأمير يوسف لأمه وأبيه ، ومزاحمه على الحكم ؛ وكان هذا الأمير في الشويفات ، فوافى خاله الى عكا ، فأنعم عليهما الجزار بحكم جبل الشوف ، وألبسهما خلع الولاية ، وأرسل معهما فصيلة من جنده .

أما الأمير يوسف فلم يرَ بـدّاً من ان يترك لهما عاصمته دير القمر ، ويخرج منها . ولكن لم يطل الأمر حتى اتصل بالجزار وأدّى له مبلغاً من المال ، وتعهّد له بألف ألف غرش يدفعها اليه في ثلاثة أشهر ، فأعاد الجزار اليه الحكم .

ولما استعاد الامير يوسف ولايته على الشوف خرج من عكا وبعث الامير اسعد ابن الامير سلمان ، حاكم حاصبيا السابق ، والامير محمداً حاكم راشيا، وبعث معهما عسكراً كثير العدد ، وعهد اليهما بالقبض على خاله الامير بشير ، وتولي الحكم في حاصبيا وراشيا ؛ فسارا حتى دخلاها ، ففر الامير بشير منها ، واستولى عليها الامير اسعد . ثم مشى الامير محمد الى راشيا ، وكان يتولاها الامير قاسم ابن الامير فارس الكبير ، من قِبَل الامير اسماعيل ، فقبض عليه ، وتولاها بدلاً منه .

وجدّ الامير يوسف في السير الى دير القمر حتى سقط عليها عند الفجر ، وطوقها برجاله . فتمكن اخوه سيد احمد من الفرار ، والتحق بخاله الامير بشير ، وانطلقا معاً الى حوران . ولكن الامير اسماعيل لم يستطع الفرار ، فقبض عليه الامير يوسف وزجّه في السجن، فمكث فيه حتى توفي في مستهلّ ربيع الاول سنة ١١٩٩ هـ اي ١٧٨٤ م ؛ قيل انه قتل خنقاً ، فأخفى الامير يوسف موته ثلاثة أشهر خشية من الجزار لئلا يتّهمه بقتله ،

وكان قد اوصاه بالاحتفاظ به ؛ وابقى الحراس يتناوبون حراسته ، وهم لا يدرون، ولا يدري احد، انه مات .

ولم يكن ليروق الامير يوسف ان يبقى خاله بشير حيّاً يهدّده ، وليس بشير بأعز عليه من اخيه لأبيه الامير فندي ، وقد قتله لانه طمح الى مزاحمته على الحكم ، فأرسل اليه كتاباً يراوده على المصالحة ، واطلق له الامان . وكان الامير بشير قد انحدر من حوران الى دمشق ، فجاءه كتاب الامير يوسف ، وهو فيها ، فخدع بما فيه ، ونهض من دمشق الى دير القمر ، ولم يدخل على الامير يوسف ، وهو في مجلسه ، حتى نهض اليه واغمد خنجره في صدره ؛ ثم قتل مدبّره عبدالله مالك ، بعد ان كان قد أمّنه على نفسه ، وسلب أمواله .

وكان الامير بشير لا يقلُّ ثروة عن اخيه اسماعيل ، فرأى الامير يوسف ان يحرّر تركته ويستولي عليها . فلم يرَ احداً يثق به الا ابن ابن عمه الامير بشير ابن الامير قاسم عمر الذي صار فيما بعد بشير الثاني . وكان هذا الامير من خُلصان الاميرين سيد احمد واسماعيل ، فاستجلبه الامير يوسف اليه ، و « طيّب خاطره » وارسله الى حاصبيا ليطّلع على التركة .

سار الامير بشير الى حاصبيا ونزل ضيفاً على الاميرة شمس، زوج القتيل ، فاستهوته بما فيها من جمال واخلاق ، واستهواها

باكتمال رجولتـه وشجاعته وذكائه ؛ ولم يكن من اعجـاب احدهما بالآخر الى الزواج الا خطوة ما عتّما ان خطواها .

وثمّة اسطورة عن هـذا الزواج لا بـأس بايرادها . تقول هذه الاسطورة : ان الامير بشيراً لمـا كان في ضيافة الاميرة شمس ، تناول الطعام واياها معاً ؛ وكانت الايام قارسة البرد ، فجاءهما الخادم بابريق النحاس مملوءاً بماء ساخن ليغسلا ايديهما ؛ فأخذت الاميرة الابريق لتصب على يدي الامير ، إمّا تلطفـاً منها ، وإما انه كان في نفسها منه ما كان في نفسه منها ، فأبى الامير ان يغسل يديه قبلها ؛ ثم تناول الابريق منها وصبّ من مائه على يديها ، فلذعتها حرارة الماء ، فصاحت : « آخ احرقت يدي ! » فأجابها على الفور : « مصيبتك هينة عنـد مصيبتي ؛ انت احرقت قلبي ! » وكان هذا التصريح الفجـائي كافياً لأن يتفقا على الزواج ، وسبباً لقولتها تلك الكلمـة المأثورة عنهـا : « أوّلها بشير وآخرها بشير . »

وهذه الاميرة وان لم يكن لهـا تأثير مبـاشر في السياسة اللبنانية ، اثّرت بأن اعـاد زواجها الوفـاق واواصر الرحم بين شهابيّـي وادي التّـيم وشهابيّـي جبل لبنـان ، وازال تلك الضغائن التي شقّت الشهابيين على اثر موت الامير اسماعيل ومقتل اخيه الامير بشير ؛ واثّرت كذلك بأن سهّلت ثروتها

للأمير بشير الثاني ان ينفق من المال ما مكّنه من الوصول الى حكم لبنان : ذاك بأن الامير بشيراً لم يكن على شيء من الثروة ، فقد توفي والده الامير قاسم ، في غزير ، في ١٨ نيسان سنة ١٧٦٧ ، وتركه واخاه حسناً قاصرين : فحسن في زهاء الرابعة من سنه ، وبشير لم يتجاوز الثلاثة اشهر ، ولم يترك لهما من المال الا شيئاً زهيداً . ثم لم تلبث امهما الاميرة اسماء بنت الامير منصور الشهابي من زوجته ، ابنة عمه بدر السماء ، ان تزوجت الامير سيّد احمد الشهابي في حدث بيروت ، وتركتهما يتيمين صغيرين بين يدي مربيتهما مرحبا بنت نصرالله البشعلاني من صليما[1] ، فاعتنت بهما كل العناية ، ولاسيما ببشير الطفل .

ولما ترعرع الأمير حسن لجأ الى الأمير يوسف، ابن عم ابيه، في دير القمر ؛ وانتقلت مرحبا بالأمير بشير الى برج البراجنة ، فكان يتردّد على امه أحياناً .

ولما بلغ الثالثة عشرة من سنه ذهب الى بتدين ؛ ويقول الأمير حيدر : « ان الامير يوسف اسكن الامير بشيراً في بتدين ، بعد معركة ظهر الأحمر، قرب راشيا، التي ثبت فيها هذا الامير في وجه عسكر الجزار ، ولم يكن له من العمر الا

---

١ انظر « تاريخ بشعله وصليما » للاب اسطفان البشعلاني .

خمس عشرة سنة ؛ وان الامير يوسف كان يداريه ويخافه اكثر من جميع أهله .» وربما كانت المداراة والمخافة متأتيتين عن ادراك الأمير يوسف ادراكاً سابقاً لما سوف يكون للأمير بشير من شأن في حياته .

غير ان الامير بشيراً يخالف في الحديث المنسوب اليه ما قيل في شأن ذهابه الى بتدين ونزوله فيها ، فقد أخبر عن نفسه قال[1] : «توفي والدي الامير قاسم عني وعن أخي حسن ، فاقتسمنا ما تركه ، فكان نصيبي عودتين في بتدين وفرسين وجارية حبشية . فأخذت حصّتي من الاثاث وحمّلته على بغل ، واركبت الجارية على البغل فوقه ، وبهذا تُعرف قيمة ذاك الاثاث الذي قدر بغل ان يحمله ويحمل الجارية معه من غزير الى بتدين . وسافرت متكلًا على الله عازماً على ان اكون في كنف عمي الامير يوسف، حاكم جبل لبنان، وكان يقيم في دير القمر. ولما وصلت مثلت أمامه وعرضت له انني اتيت لأسكن في حماه ، فوعدني رعايته وحمايته . ثم ذهبت الى ملكي ، وجعلت في اول الامر أبني طابونة (بيتاً من اللبن) بمعاونة شريك المساقاة، فكان هذا الشريك يناولني التراب ، وسائر الأدوات ، وأنا أبني

---

١ ذكر حديث الامير بشير عن نفسه المرحوم جرجس صفا نعمه في مقال له عن سراي بيت الدين ، نشر في العدد الاول من مجلة الكلية سنة ١٩٣١ .

بيديّ ، فيقول لي : يا سيدي ألا ترى ان هذه الطابونة صغيرة؟ فاجيبه : ان شاء الله نجعلها في المستقبل كبيرة . »

وقد تمّ ما توقّعه الامير من تكبير تلك الطابونة التي كانت نواةً لذاك القصر الفخم .

فالاميرة شمس اذاً غذّت بثروتها نهضة الامير بشير على الامير يوسف ، فلولاها لما استطاع ان ينفق على من جنّد من الشوفيين ، وعلى ما أعطاه اياه الجزار من عسكر لمحاربة الامير يوسف : ذاك بانه لم يكن بعدُ قد تولى الحكم ليجمع من الاهالي مالاً ، ولم يكن المال الذي زوّده به الامير يوسف يوم بعثه الى الجزار ، ليكفي ان يشبع نهمة الجزار .

ولم تذهب يد الاميرة شمس عند الامير بشير سدى ، وانما زادت محبته لها ؛ وكان ايضاً من حظّها ، لتمكين محبتها في قلبه ، ان ملأت بيته أولاداً ذكوراً .

ومن غريب الاتفاق في حياة هذه الاميرة انها لم تكن تلد الا في تشرين الثاني : فقد ولدت بكرها في الثامن والعشرين منه سنة ١٧٨٩ ، وسماه الامير باسم ابيه ، قاسماً ؛ وولدت ولدها الثاني خليلاً في الخامس منه سنة ١٧٩٠ ؛ وولدت الثالث أميناً في السابع منه سنة ١٧٩٧ .

ولما بلغت الستين مرضت بالفالج وطال مرضها ، فلم يكن

ذلك ليجعل الامير يَملكُها ، وانما زاد تعلقه بها وحدبه عليها . وقد تكلم عليها لامرتين في كتابه « رحلة الى الشرق » ولكنه خلط في كلامه بعض الخلط قال :

« انها شهابية كانت زوجة امير تركي قتله الامير بشير قبل زواجه بها بسنتين ؛ وكانت جميلة جداً ، وذات ثروة عظيمة ؛ عمّدها الامير ثم تزوجها ؛ ولما بلغت الستين اصيبت بالفالج ، فقعدت لا تستطيع النهوض ، فكان الامير يُعرب لها عن حنان عظيم واتحاد زوجي تام . »

وتكلم ايضاً عليها القبطان فردينان بيريه في كتابه « سوريا في ظل الحكم المصري » ولم يتعدَّ الصواب في كلامه ؛ قال :

« ان الامير كان يحبّها كل الحبّ ، وقد عُمّرت طويلًا ؛ ولم تكن الامراض الكريهة التي اصابتها ، في شيخوختها ، لتنقص من تعلقه بها ، فكان يعتني بها بنفسه ، ولما ماتت حزن عليها حزناً شديداً . »

وتؤيد التقاليد الديرية ما قاله هذان الرحالتان عن حب الامير لها : فقد ذكروا ان احد اتباع الامير كان ساهراً ذات ليلة معه ينادمه ، فدار الكلام على امور جرّت النديم الى ان يقول للامير : إن سعادة الست طال مرضها ، ونسأل الله لها الشفاء . وسعادتك لا تزال شاباً ممتعاً بأجود صحة . فأدرك

الامير الى اين يريد ان يصل في كلامه ، وانه يريد ان يشير عليه بالزواج ، فانتهره انتهارة مرض على اثرها من شدة رعبه ، وما لبث ان مات .

وفي يوم الثلاثاء من محرم سنة ١٢٤٥ هـ ، ١٨٢٩ م ، توفيت الاميرة شمس . ويقول الامير حيدر : «انه في حين انتقالها أمر سعادة الامير بدفنها من دون ان يصير مأتماً (كذا) كما كانت العادة القديمة ، لأن سعادة المشار اليه كان يرغب أن تبطل هذه العادة من جميع البلاد ، حسب قوانين الكبار في غير مدن وبلدان . وفي الحال صنعوا المعلمين (كذا) حجرة في الجنينة التي خارج السرايا ، واطلق الإعلام الى آل شهاب ، واكابر البلاد ، انه لا احد يحضر ، حيث ان سعادة الامير يرغب تبطيل هذه العادة . وقد كتب هذا التاريخ على الحجرة :

هذا ضريح قد غدا روضَ نعيم مستطابْ
قد أغربت شمس الضحى فيه ، فعنّا النورُ غابْ
فغادرتنا كوكب الاحسان في آل شِهابْ
فعزّها ، قد أرخوا : باقٍ ، توارت في الحجابْ

سنة ١٢٤٥ هـ »

ولكن الامير لم يرضَ لها بهذه الحجرة التي بنيت على عجل ، فبنى لها في جنينة القصر قبة يتوسطها ضريح انيق من الحجر الوردي الجميل ، يقوم بين الاشجار الباسقة والازهار الفوّاحة ؛

يؤنس رميم عظامها فيه اغاريد العصافير تتناجى في الاشجار ليلَ نهارَ ، وثرثرة مياه الشلال المتدفّق زلالاً على مقربة منه .

ولا يزال هذا الضريح اليوم كما لو كانت قد فرغت منه يد الصانع امس ، ماثلاً بجلاله ، وطرازه الشرقي ، باقياً على تقلبات الايام ، وتبدّل اشكال الحكم في لبنان ، وتداول الايدي المختلفة لقصر الامير .

وربما كان الامير ، حينما بناه ، يفكّر في ان تكون فيه رقدته الاخيرة ؛ وقد تحقق ما فكر فيه ، وان يكن ذلك بعد مئة ونيّف من السنين . وها هو الآن يرقد رفاته الكريم الى جانب رفات المرأة التي احرق يديها واحرقت قلبه .

حبوس الارسلانية

لم تحز اميرة لبنانية بعد الاميرة نسب التنوخية ، أم فخر الدين الثاني ، ما حازته الاميرة حبوس الارسلانية من جلال المقام ولمعان الشهرة : فهذه الاميرة التي كان اللبنانيون ينادونها بالست حبوس ، مثلت في السياسة اللبنانية ، على عهد الامير بشير الكبير ، دوراً سنيّاً ، كان له شأن عظيم في ادارة دفة الحكم في لبنان ، فاتخذوها مثلاً يُضرب في العزة والشجاعة والاقدام .

وقد وصفتها دائرة المعارف ، للبستاني ، بأنها « كانت حاذقة ، سديدة الرأي ، ثابتة الجنان ، عالية الهمة ، كريمة اليد ، حسنة السياسة ؛ وكانت الى ذلك تجالس الرجال ، وتقودهم بفصاحة خطابها ، تغيث الملهوفين ، وتعول من يلتجىء اليها ، وتعامله معاملة القريب والصديق ، وتجاهد في اقامة الحقوق له ، وإن لم تكن تُحقّ له ؛ هذا اذا كان من غرضها — ولفظة الغرض تعني ، في عرف اللبنانيين القدماء ، الحزب والميل السياسي — واما من يكون من غير غرضها فلم يكن يجد راحة عيش ، ولو كان

صاحب حق ، وما ذلك إلا لما كان لها من النفوذ والسطوة عند حكام زمانها . »

ولدت هذه الاميرة ، في الشويفات ، سنة ١٧٦٨ ، ووالدها هو الامير بشير بن محمد الارسلاني ؛ والارسلانيون ، وان يكن اسمهم مأخوذاً من لفظة ارسلان الفارسية ، ومعناها اسد ، عربيّو النِّجار ، يعودون بنسبهم الى المنذر بن ماء السماء اللخمي ملك الحيرة ؛ قدم بهم جدّهم الامير ارسلان الى لبنان سنة ٧٥٨ : وذاك ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور ، لما بلغه تمرّد المردة في لبنان وغاراتهم المتوالية على العرب في السواحل ، ارسل الامير ارسلان بعشيرته لمقاومتهم ومنع تعدّياتهم ، وامره ان يقيم في جبال بيروت ، اي في جبال غربي لبنان المطلّة على بيروت . فلبّى دعوة الخليفة ، وسار بقومه ، فنزلوا اولاً في الحصن المعروف بحصن ابي الجيش ، في وادي التّيم ، ثم دخلوا لبنان في سنة ٧٥٩ ، وتفرقوا فيه ، وعمروا جبال بيروت . وكانت بينهم وبين المردة مواقع كثيرة ، اشهرها الموقعة التي قيل انها اكسبت نهر الموت اسمه لما سقط قربه أو فيه من قتلى هذه المعركة .

والأمير بشير ، والد الأميرة حبوس ، يتحدّر من سلالة الأمير جمال الدين أحمد الأرسلاني، الذي شهد، في سنة ١٥١٦،

موقعة برج دابق ، وهو مكان يبعد عن حلب ست ساعات من شمالها؛ هذه الموقعة التي ذكرنا، فيما تقدم من الكلام، انها دارت بين السلطان سليم العثماني والملك الاشرف قانصو الغوري ، آخر ملوك دولة المماليك البرجيين، فكانت دائرتها على الملك الأشرف .

تزوجت الست حبوس الأمير عباس بن فخر الدين الارسلاني، فولدت له اربعة ذكور : منصوراً ، وحيدراً ، وأحمد ، وأميناً . ولما توفي عنها ، سنة ١٨٠٩ ، تولّت شؤون إقطاعته في الغرب اللبناني لأن أولادها كانوا لا يزالون قاصرين .

وتقول دائرة المعارف ، للبستاني: « ان الامير بشيراً جعلها، في سنة ١٧٩٣ ، حاكمة على اقطاعة الغرب ، فأدارت الحكم بفطنة قلّ نظيرها ، جعلتها موضع اعجاب اللبنانيين وقِبلة أنظارهم . »

وفي سنة ١٧٩٤ شكا رئيس العسكر — وكانوا يسمونه سر عسكر — محمد آغا العبد، وآغاوات العساكر، الامير بشيراً الى الجزار ، بأنه لم يؤدِّ الجزية المفروضة عليه للعساكر ، على ما جمعه من الاموال الكثيرة من أهل البلاد . فأرسل الجزار ، الى هذا الرئيس والى الآغاوات ، أمراً بالقبض على الامير بشير وأخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط ، فقبضوا عليهم في غابة الصنوبر في بيروت ، وقادوهم الى سفينة حملتهم الى عكا؛

فسجنهم الجزّار في قلعتها وقيّدهم بسلاسل ثقيلة ومنع الناس مواجهتهم . وقد لبثوا في السجن الى ان صفا خاطر الجزار عليهم، على حدّ قول الامير حيدر، فأخرجهم من القلعة وألبسهم الخلع، وأعطاهم خيولاً بعُددها الكاملة، وردّ عليهم ما كان قد ضبط لهم من خيل وسلاح يوم أُخذوا من غابة الصنوبر، ثم أعادهم الى بلادهم في سنة ١٧٩٥ . غير انه لم ينعم على الامير بشير بخلعة الولاية، الا بعد ان أخذ ولديه وزوجته رهائن، لان الارتهان كان عادة ملازمة له مع كل من يوليه الولاية . ففي اثناء سجنهم هذا كانت الاميرة حبوس لا تنقطع عن ارسال الاموال الجزيلة الى الامير بشير ليقدّمها الى الجزار فدية عنه وعن اخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط ؛ وكانت كذلك تقوم بشؤون عياله، وتسعى الى استمالة الناس اليه، وجعلهم حزباً له، وابعادهم عن الامير الذي خلفه .

وقد تبسّط لامرتين في كتابه «رحلة الى الشرق» في ذكر ما صنعته الست حبوس تجاه الامير بشير حينما كان في سجن الجزار، قال : «لما طرح الجزار الامير بشيراً في سجن عكا، يوم ذهب اليه، بعد مقتل الامير يوسف، أبقاه مدة عشرين شهراً، وضيّق عليه بغية أن يسوقه الى دفع جزية عظيمة . لكن الامير بشيراً لم يكن يملك شيئاً، ولم يكن بعدُ قد تولى

زمناً طويلًا ليجمع ثروة . وكان معه في السجن وزيره الشيخ بشير ، فأرسل هذا سراً الى الاميرة الدرزية الست حبوس ، التي كان بينه وبينها علاقات حسنة ، وعهد اليها بأن تقدّم للباشا المبلغ الذي يطلبه ، وتتظاهر بأنها تريد ان ترهن حلاها وجواهرها لاكمال الفدية . فذهبت الى الجزار ، وكانت امرأة فطنة جريئة ذات براعة عظيمة ، فالتقته في عكا ، واستمالته بلطف شخصها وذكائها ، حتى انه خفّض مقدار المبلغ ، الذي كان قد طلبه ، تخفيضاً عظيماً ، وأرجع الامير الى ولايته . »

ولم يكن هذا العمل بالامر الوحيد الذي صنعته الست حبوس لمساعدة الأمير بشير في تولي الحكم ، بعد انتزاعه منه ، وانما لها أيادٍ أخريات جليلة في سبيل تأييد حكمه في البلاد واستجلاب ميل اهلها اليه .

ففي سنة ١٨١٨ عُيّن عبد الله باشا والياً على عكا ، وكان شأنه شأن غيره ممن تولوا هذه الولاية ، ان يجمع الاموال بأية طريقة كانت ليملأ صندوقه ، ويشبع قرَم رجال الدولة ، فيتمكن من البقاء زمناً طويلًا في ولايته . فطفق يضايق الامير بشيراً ، ويطلب منه زيادة عمّا هو مضروب من الجزية على أهل البلاد ، وألحّ عليه بأن يرسل اليه بخمسين الف ربع دينار فندقلي[1] ،

---

١ لعله منسوب الى البندقية .

فطلب الامير هذا المبلغ من النصارى ؛ فامتنعوا ، واجتمعوا في انطلياس وتعاهدوا على ألاّ يؤدوا ، في كل عام ، إلاّ ما رُسم عليهم منذ القديم ، يؤدونه في وقته . وأجمعوا رأيهم على ألاّ يذعنوا لطلب الزيادة ، ولا يدفعوا ديناراً واحداً . ثم تجمهروا في الشوف وكسروان وجبيل ، وكتبوا الى عبد الله باشا يعلمونه بأن الامير ظلمهم دون غيرهم ، والتمسوا منه ان يبقوا على عادتهم القديمة من حيث الجزية ؛ فأجابهم الى طلبهم وأمرهم بألاّ يذعنوا لطلب الأمير .

ورأى الامير بشير هذا ، فأدرك ان تلبية الباشا لطلب النصارى دليل على تغيّره عليه ، ولم يكن لديه من المال ما يرضيه به ، فعزم على التنزّل عن الولاية ، وعلى الخروج من البلاد الى حوران ؛ فكتب الى الباشا يقول له : إن عدم رضاه عنه ، وقيام أهل البلاد عليه جعلاه عاجزاً عن تعاطي الاحكام ، ولهذا يتنزّل عن ولايته .

وفي العاشر من آذار سنة ١٨٢٠ غادر لبنان منطلقاً الى حوران بأولاده وخاصّته ، وصحبه الشيخ بشير جنبلاط وعياله ، وبعض الامراء الارسلانيين ، وفيهم الست حبوس واولادها ؛ وولّى عبد الله باشا بدلاً منه الامير حسن بن علي الشهابي من وادي شحرور ، والامير سلمان بن اسعد حمد من الحدث ، بعد ان تعهدا له بزيادة المال المترتّب على الجبل .

لبث الامير بشير في حوران ينتظر ان يتنكّر الباشا للأميرين حسن وسلمان فيعزلهما عن الولاية ويعيده اليها : لأن أمر تولي هذه الولاية كان ألعوبة في يد والي عكار ، وموضع مساومة ، فهو يخلع خلعتها على من ترسو عليه الزيادة . وكانت الست حبوس ، في اثناء ذلك ، ترسل من رجالها من يجوسون خلال لبنان ، ويراقبون اتجاه ميل أهله : ألا يزال على الامير ام تحوّل اليه ؛ وربما كانوا يبثون له الدعوة الموافقة ، ويتقصّون أخبار الاميرين الحاكمين ، وكيف شأنهما وباشا عكار ، ثم يبعثون بكل ما استطلعوه الى الاميرة الارسلانية ، فتنقله الى البشيرين ليظلا ، على بعدهما ، متصلين بلبنان ، مطلعين على احواله السياسية وما يطرأ عليها من تبدّل وتطوّر .

ويروي المؤرخون شيئاً عن شجاعة الاميرة وبطشها في حوران : فقد رووا ان بعض العرب تعدّوا على الدروز هنالك واوقعوا بهم الاذى ، فخرجت الاميرة اليهم برجالها تحاربهم فاستظهرت عليهم وردّتهم مهزومين .

وما لبث الامير بشير ان استرضى عبد الله باشا ، فتمكن من العودة الى لبنان ، ونزل بمن معه في جزين . ثم عجز الاميران ، الحاكمان بدلاً منه ، عن تأدية ما فرضه الباشا عليهما ، فازاحهما عن الولاية وأعاد اليها الامير بشيراً ، وعادت الست حبوس الى منصبها في ولاية اقطاعة الغرب .

غير ان هـذا الاخلاص، الذي أظهرته الأميرة الارسلانيـة للأمير الشهابي ؛ وتلك الأموال ، التي بذلتها لانقـاذه من سجن الجزار ، وللقيام بنفقات عيـاله في غيابه ؛ وتلك المساعي التي سعتها لاعادته من حوران الى ولايته ، لم تمنع وقوع الواقعـة بينهما ، وتحوّل تلك الصداقة الى عداوة شديدة يتمنى معها كل منهما لو تمكن من القضاء على خصمه .

ففي سنة ١٨٢١ اختلف عبـد الله باشا والي عكا ودرويش باشا والي الشام ، في شأن نابلس ، ووقع القتال بينهما ؛ وكان من الطبيعي ان ينتصر أمـير لبنان لباشا عكا . وكاد العسكر اللبناني يرجّـح كفّة هذا الباشا ، لو لم يعلن السلطان محمود الثاني تمرّد عبد الله باشا على الدولة ، وعزله من ولايته ، واحالتها الى عهدة خصمه درويش باشا . فتسلّم هذا ولاية عكا وعزل الامير بشيراً وعين مكانه الأمير عباس اسعد . فانضم الشيخ بشير الى هذا الامير، وتعهّد لدرويش باشا بدفع بعض المال الذي طلبه.

ولم يشر احد من المؤرخين الى سبب ترك الشيخ بشير للامير بشير وانضمامه الى الامير عباس اسعد . ومهما كان الامر فان الامير بشيراً ما كاد يعود الى دير القمر مكللاً بغار الانتصار في موقعتي المزة وخرجانة، اللتين كسر فيهما عسكر درويش باشا، حتى ادرك من تغير الاحوال انه لا يمكنـــه البقاء في الدير ،

فانحدر بأولاده وحاشيته الى غابة الصنوبر في بيروت ، محاذرةً لما يبيّته له المشايخ اليزبكية ؛ واذا به يتلقى انذاراً من الشيخ بشير يقول له فيه: ان ينزل وأولاده في البحر والا زحفت اليهم العساكر . فلم يرَ الامير بدّاً من السفر الى مصر ، وكانت هذه الحادثة مثاراً للعداوة بين البشيرين .

ولكنّ زمان مكوث الامير في مصر لم يكن طويلاً ، لان عزيز مصر محمد علي باشا كان ينزع الى الحاق القطر السوري بالقطر المصري ، ويعلم انه يصعب عليه الوصول الى ما يريده ان لم يكن أمير لبنان حزباً له ؛ وهذا النزوع هو الذي جعله يحتفي بالامير ، ثم يسعى ، لدى الباب العالي ، لاعادته الى ولاية الجبل ، وللعفو عن عبد الله باشا وارجاع ولاية عكا اليه ، تلبية لطلب الامير .

عاد الامير الى لبنان ، وكان كل همه القضاء على الشيخ بشير الذي صار عدوه الاكبر ، خصوصاً انه كان يخشاه لدهائه وكثرة ماله ورجاله . وشعر الشيخ بشير بما يبيّت له الامير ، فخافه لما يعلم من فتكه ، وطفق يأتمر به . وكانت الاميرة حبوس ، على قول مؤرخيها ، قد حقدت على الامير لتوسطه في أمر العفو عن عبد الله باشا ، ولم يبينوا سبب بغضها لهذا الباشا ، وربما كان ذلك راجعاً الى عهد نفرتها بأولادها مع الامير بشير الى

حوران ؛ ومهما يكن الأمر ، فانها حالفت الشيخ بشيراً على الامير ، وكان من جرّاء ذلك ثورة الامراء والمشايخ ؛ تلك الثورة التي عُرفت بحركة المختارة ، وانتهت بفوز الامير ، وأسر الشيخ بشير في الشام، ثم مقتله في عكا سنة ١٨٢٥ .

وكان الامير بشير ، بعد عودته من مصر في سنة ١٨٢٢ ، قد سلّم الى الامير احمد ابن الست حبوس إقطاعة الغرب ، بدلاً من أمه ؛ لانه كان قد ساعده برجاله في موقعة المزّة ، وأعانه في موقعة لحفد ، التي دارت بين جماعة الامير ورجال تلك الاقطاعة ، واظهر في كلتا الموقعتين شجاعة عظيمة .

غير ان الامير الشهابي وان يكن اراد في الظاهر مكافأة الامير الارسلاني ، فقد كان يرمي ، في سره ، الى النيل من عزة الست حبوس لاتفاقها والشيخ بشيراً عليه . وعداوة الست حبوس لم تكن بالعداوة التي يستهان بها ، لما كان لها من التأثير في الجبل ؛ فطفق الامير بشير يفكر بأن يزيحها من طريقه ليستريح منها .

ورأت الست حبوس في سنة ١٨٢٤ ان الشيخ بشيراً قد غُلب على امره ، فأدركت ان الامير لا بد ان يفتك بها ، فآثرت اللجوء الى بشامون . ويقول طنوس الشدياق في كتابه « اخبار الاعيان » ان ولدين من اولادها صحباها ، ولكنه لم يسمّهما .

لجأت الاميرة الى بشامون فاتصل خبرها بالامير بشير ، فأتبعها احد ابناء اعمامه الامير بشير قاسم حيدر ، الذي صار فيما بعد بشير الثالث ، ولقّب بأبي طحين ؛ أتبعها اياه ليصادرها باموال . ولم يذكر مؤرخوها سبب المصادرة بهذه الاموال ، ولماذا صادرها بها ، في حين انه سلّم اقطاعة الغرب الى ولدها ، ولم تبقَ لها علاقة بها ، ولا بالمال الذي يجنى منها ؟ اتراها كانت اموالاً قديمة عليها لم تدفعها بعد ؟ وكيف كانت الحال ، فالامير بشير اراد ان يتحرّش بها ليتوصل الى طريقة يتخلص معها منها ؛ وهكذا فانه لم يكد يشدد عليها بالطلب حتى ماتت قهراً .

ويروي طنوس الشدياق انه « لما شدد الامير بشير قاسم حيدر على الاميرة بطلب المال ، وضيّق عليها ، ذهب ولداها الى عين تراز يلتمسان من الشيخ منصور الدحداح ، مدبر الامير ، ان يسترضيه بتعيين ما يمكنهما دفعه من المال المطلوب ؛ وفي غضون ذلك توفيت . ولما بلغ اولادها خبر وفاتها حضروا الى بشامون وعملوا لها مأتماً ، ودفنت في قبّة الامير نجم[1] . »

وفي موت الست حبوس قولان آخران ذكرت الاول منهما دائرة المعارف ، للبستاني ، قالت : « ويقال انها ماتت

---

١ الامير نجم هو ابن الامير عبد الله الارسلاني ، بنى له جده الامير قاسم هذه القبة مدفناً ، فحملت اسمه .

بدسيسة من الامير بشير. » ويزيد رواة التقاليد القديمة على هذه الرواية : ان الاميرة خُنقت خنقاً .

اما القول الآخر فاسطورة لم تدوَّن ، وانما تناقلها الناس خلفاً عن سلف ، وهي تروي : انه بينما كان جند الامير بشير محاصراً قصرها في بشامون ، دخلت القصر نوريّة تقصد الاستجداء ، فاستبدلت الاميرة بثيابها ثياب النورية وخرجت . ولم تسر مسافة في طريق عين عنوب حتى رآها احد الجنود ، فلفتت نظره ساق بيضاء تظهر من تحت الثياب ، لا يمكن ان يكون مثلها لنورية تضرب في الآفاق منتعلة قدميها . فصاح : هي ذي الاميرة ! فالتحق بها الجند، فسقطت ميتة لشدة تأثرها. ويروى كذلك انهم اطلقوا عليها الرصاص عند كنيسة عين عنوب الارثوذكسية، فقتلوها، وكان لها من العمر ثمانٍ وخمسون سنة .

هكذا خُتمت حياة هذه الاميرة اللبنانية العظيمة ؛ هذه الاميرة التي اتخذها اللبنانيون مثلًا ما زالوا يضربونه في تحدّثهم عن العزة والشجاعة والنبل والاقدام .

حسن جهان

ترمّل الامير بشير الكبير بوفاة زوجته الاميرة شمس سنة ١٨٢٩ ، وكان له من العمر اثنتان وستون سنة ؛ وعلى شدّة حزنه عليها ، ما لبث ان مالت نفسه الى ان يشرك امرأة ثانية فيما أجّل الله له من السنين . ولم يشأ ان يتزوج اميرة لبنانية خشية ان يتوسل اهلها بما سوف يكون لهم من دالّة الإصهار ، الى التدخّل في سياسته واعماله ، وهو يأبى الا ان يكون حراً ، مطلق اليد فيها ؛ او ان يتدخلوا في قضية الوراثة ، لانه لم يكن يخطر في باله ان الامارة الشهابية ستبيد من بعده ، وان اجله سيوافيه على ضفاف البوسفور . وتجاه هذه الخشية رأى ان يأتي بامرأة غريبة لا صلة لها بلبنان واهليه . فأرسل الى الاستانة جوهريّه يوسف ، احد امنائه وثقاته ، ليأتيه بجَوارٍ ينتقي منهن زوجة له . فانطلق هذا في رسالته ، ثم عاد حاملاً معه ثلاث فتيات شركسيات ، وقيل اربعاً ، اشتراهن بأثمان عالية ؛ فاصطفى الامير منهن حسن جهان ، ونصّرها وتزوّجها ، وجاءها بكاهن ارمني متضلع من العربية فعلّمها إياها .

وتقول التقاليد اللبنانية ان حسن جهان كانت اميرة من اميرات الشراكسة، ولا ينفي قولَهم هذا أن بيعت بيع الرقيق. فقد تكون سُبيت في غارات القمع التي شنّتها الدولة العثمانية على الشراكسة في ثوراتهم المشهورة عليها، وحُملت الى الاستانة فيمن سُبي من بنات بلادها، وبيعت فيها. على ان حظها الميمون دلّ عليها رسول امير لبنان فاشتراها، وزواجها بالامير سنّى لها ان تخلُد في التاريخ، فلو قُدِّر لها ان اشتراها غيره، او لو بقيت في بلادها، لكانت ذهبت نِسياً منسيّاً ذهاب كثيرات غيرها من اميرات العالم.

كانت سعادة الست، كما كان يدعوها اللبنانيون، رائعة الجمال، يليق بها اسمها الفارسي: حسن جهان، الذي معناه حسن الدنيا؛ ولا عجب في ان تكون جميلة، فانها شركسية، والشركسيات مشهورات بجمالهن؛ وكانت تجمع الى هذا الجمال الخَلقي جمال النفس وطيب الاخلاق، وهذا ما جعل الامير يحبها، كما احبّ زوجته الاولى، ويحيطها، من الفخفخة والاحترام، بما يليق بزوجة امير لبنان. حتى ليُروى انه كان بين الجواهر التي اهداها اليها ياقوتة وضعتها في طنطورها — والطنطور طاسة مستطيلة محدّدة توضع على الرأس — ثمّنها باعة الجواهر بأكثر من مئة ألفٍ وخمسين الف غرش؛ وغرش

ذاك العهد كان ، على حدّ قول العامة ، له « ذقن كبيرة » .

وحبّ الامير للست ، واخلاصها الصادق له جعلا نفوذها عظيماً في بلاطه . غير انها لم تكن تستخدم ذاك النفوذ إلاّ بما فيه النفع والخير للبنانيين ؛ وكثيراً ما كانوا يلجأون اليها إما لتخفيف الضرائب عنهم ، أو لغير ذلك من الامور التي يتعلق قضاؤها بالأمير ، فكانت تلبّيهم وتحقق رغباتهم .

وقد اندمجت حسن جهان باللبنانيين واتصلت بهم أكثر من سليفتها الاميرة شمس . ولعلّ ذلك متأتٍ من ان كرسي الامير لم تكن قوائمه قد ثبتت في الحكم كل الثبات في عهد زوجته الاولى ، أومن مرض الاميرة شمس ذاك المرض الطويل الذي ألزمها الفراش سنوات .

ولدت حسن جهان للأمير بنتين سمّى كبراهما سعدى تيمّناً بكنيته ابي سعدى التي كان اللبنانيون يكنّونه بها . وقد وردت في بيت شعر مدحَ به نقولا الترك الامير بعد انتصاره في معركة دمشق ، التي دارت بين سليمان باشا والي عكا ، والكنج يوسف باشا والي الشام ، في سنة ١٨١٠ ، قال :

وتمّ له نصرٌ ، من الله ، مُقبِلٌ
بوجه ابي سَعدى ، وفيه تبشّروا

وهذه الكنية مأخوذة من السعد . وكان اللبنانيون يلفظون

اسم سعدى ، بنت الامير ، بفتح السين ، مع انه مضمومها لأنه صيغة تفضيل للمؤنث ؛ وسمّى الثانية سعودَ ، وكانوا يفتحون السين في لفظ هذا الاسم ويشددون العين ، فيقولون : سَعُّود .

وقد رافقت الست وبنتاها الامير في منفاه ، وتنقّلن معه في البلدان التي تنقّل فيها ، الى ان استقرّ واستقرّين معه ، من الاستانة ، في محلة قاضي كوي .

وزوّج الامير بنتيه ، وهو في الاستانة : استقدم اليه الامير سليماً ابن الامير عبد الله ابن اخيه حسن ، فزوّجه سعدى ؛ والامير خليلًا ابن الامير بشير بن احمد اللمعي ، فزوّجه سعود لانه رآه كفؤاً لها نسباً وغنى ، وكان ابوه يومئذٍ قائم مقام النصارى ، وذلك في عهد القائمقاميتين .

ولبثت الست وبنتاها وصهراها الى جانب الامير في الاستانة الى ان توفي في الساعة التاسعة والنصف من نهار الاثنين في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٥٠ . فبعثت برسالة الى البطريرك يوسف الخازن تنعى أميرها اليه ، وتخبره فيها بأن الدولة العلية أذنت بأن يُدفن ، وفق ارادته ، في كنيسة البطريركية الأرمنية الكاثوليكية ، في غلطه ، فدُفن « بكل احترام ووقار » . وقد اثنت على المونسنيور سلفياني ، والمطران حسّون وافراد طائفتهما لما اظهروه من « لطف ومعروف » ؛ وبعثت مع هذه الرسالة

بحوالة مبلغها اربعون الف غرش ، على خليل وملحم الطرابلسي من دير القمر، اللذين نعتتهما «بأحبابنا ووكلائنا» ، وأوضحت كيف يجب ان يوزّع هذا المبلغ عن نفس زوجها الامير .

مكثت حسن جهان في الاستانة ، بعد موت الامير ، حتى منتصف سنة ١٨٥١ ، ثم استأذنت الباب العالي بالعودة الى لبنان ، على ان تحتفظ بحق ما رتب لها من مالٍ ، فأذِن لها .

وقد أشار الى هذا الاذن الخوري اسطفان حبيش ، وكان مرافقاً للامير في منفاه ؛ فقال في رسالة بعث بها الى البطريرك الخازني، في التاسع من آب سنة ١٨٥١ ، ما نصّه : «انه من خصوص الرخصة لاحضار سعادتها للجبل ، مع حضرة أبنائها ، ما صار أدنى مانع من طرف الدولة العلية ؛ ومِن حِلمِها ظاهر كل لطفٍ . والأمل بالله ، بأواخر القادم (اي ايلول) نكون بالسفر .»

ويُستدلّ من رسالة أخرى أرسلها الخوري الحبيشي ايضاً الى البطريرك نفسه : ان مطران اللاتين احتج للمجمع المقدّس على دفن الامير في كنيسة الارمن . «ولكن نيافته — ولعله اراد بنيافته الكردينال رئيس المجمع — لم يأبه لاحتجاجه .»

ويعزو الحبيشي سبب هذا الاحتجاج الى الشيخ داود باز

من دير القمر ، فقد كان حزباً لحفدة الامير المناوئين لسعادة الست لاستئثارها بتركة الامير ؛ فهو الذي دفع مطران اللاتين الى الاحتجاج . ويعتب الحبيشي على الشيخ داود في رسالته هذه ، فيقول ، وكأنه يتكلم بلسان الست : «ان المعاون الكبير لجناب المذكورين (اي حفدة الامير) هو الشيخ داود باز ، الذي افضالنا غامرة المذكور ، وأولاد عمه الذين بالخدمة . وهذه مجازاتهم ، ولكن ما لي اقول الا : الله يسامح الجميع .»

عادت سعادة الست الى لبنان ولكنها لم تحمل معها رفات الامير ، لأن الدولة العلية لم تسمح بنقله . فبقي في الاستانة الى ان استقلّ لبنان ، ففاوضت حكومته حكومة تركيا بشأن نقل ذاك الرفات الكريم ، فسمحت بذلك . وارسلت حكومة لبنان بعثة الى الاستانة ، فجاءت به في ايلول سنة ١٨٤٧ ، وحمل في احتفال مهيب الى بتدين ، وهناك دفن في الضريح الذي كان قد شاده للاميرة شمس زوجته الاولى .

وكان الامير قد ملّكَ حسنَ جهان ، بصك كتبه في الاستانة سنة ١٨٤٥ ، قصر بيت الدين والمقصفين ، والقناة التي جُرت بها المياه من عين زحلتا ، وقرية الجية ، التي كان قد اشتراها واراضي بتدين بأموال زوجته الأولى . فكانت تتنقّل بين الجيّة وبتدين ؛ وقد اشتهرت بتقاها وكثرة مبرّاتها

وإحسانها الى المُعوزين ؛ فشيّدت في سنة ١٨٥٥ ، في الجيّة ، معبداً خاصاً بها ، ووقفت مقصفي بيت الدين على ابرشية صيدا ودير القمر المارونية ، وقناة المياه على فقراء هـذه الأبرشية ، وجعلت نظارة الوقف لمطرانها، وكان، في ذاك العهد ، المطران بطرس البستاني ؛ ولم تبقِ لنفسها الا القصر وقرية الجيّـة . ثم قسمت الجيّة ، فيما بعد ، بين بنتيها .

ولما وُضع نظام لبنان الصغير، في التاسع من حزيران سنة ١٨٦١ ، عُيِّـن داود باشا الأرمنيّ اولَ متصرف له ، فجـاء في الثاني عشر من تموز ، من السنة نفسها ، ونزل في دار الحكومة في دير القمر . ولم يطل عليه الامر حتى استأجر من الست قصر بتدين بصك مؤرخ في الثالث عشر من آب سنة ١٨٦١ ، جـاء فيه : « ان سعادة الست حسن جهـان أجّرت كامل السراي المعروفة بسراي بيت الدين ، من داود باشا متصرف لبنـان ، بكل ما فيها من الجنائن والحمّام لسنـة كاملة بأجرة قدرهـا ثلاثون ألف غرش. » وعلى هذا الصك توقيع داود باشا، وتوقيع الخوري اسطفـان حبيش بالوكالة عن الست ، وتحتهما تصديق حسن جهان بختمها وتوقيعها .

وكان داود باشا يعظّمها ويكرّمها ، فاذا جاءت الى زيارته أمر بأن يصطفّ لهـا الجند اللبناني ويستقبلها بالابواق ؛ ولعـل

هذا التعظيم ، الذي كان داود باشا يبديه نحوها ، هو الذي جعلها تتساهل في بيع القصر من الحكومة اللبنانية ؛ فباعته منها بمبلغ زهيد بالنسبة اليه ، قيل هو خمسون ألف غرش ؟ بعد ان كانت قد اجرته منها ، لسنة ، بثلاثين ألف غرش .

ويُستنتج مما كتبه عنها الدكتور شاكر الخوري في كتابه « مجمع المسرّات » انها كانت كريمة حتى التبذير ، وقد انفقت اموالاً عظيمة ، فأعسرت في آخر ايامها . وينسب الدكتور ذلك الى انها كانت ترمي من وراء سخائها الى اكتساب شهرة تمكنها من ان تحكم لبنان مكان زوجها .

ويروي ايضاً : « انها بعد ان انفقت ما انفقته ، زيّن لها المقربون منها ان تسافر الى مصر وتقابل الخديوي اسماعيل بن ابرهيم باشا صديق زوجها ، وتسأله ان يساعدها في شأن تولي الحكم في لبنان ؛ فسافرت في ايار سنة ١٨٧٤ ، تصحبها حاشية مؤلفة من عشرة انفس بينهم صهرها الامير سليم وعبد الله البستاني، شقيق المطران بطرس البستاني، فنزلت في البطريركية المارونية . »

ويظهر ان متولّي النيابة البطريركية الخوري جبرائيل صفير لم يستطع ان يتحمّل نفقاتها ونفقات من معها ، فتذمّر ؛

فسعى الدكتور الخوري ، وكان يومئذ في مصر ، ويوسف شكور ، ولعله من اسرة شكور عين زحلتا ، بواسطة رياض باشا ، لدى الخديوي لينزلها على حسابه في المضافخانة ، اي دار الضيافة ، فأصدر امره بذلك . فمكثت خمسة اشهر تنتظر ان يقابلها وهو يماطلها .

ويعلل الدكتور الخوري هذه المماطلة «بطقّ حنك الخدّام»؛ ذاك انه كان في حاشيتها واحد يتردّد مع صديق له ، يدعى الشيخ ابازا ، الى بيت منصور باشا يكن ، صهر الخديوي ؛ فقال مرة امام الباشا: ان الست جاءت مصر تحمل أسناداً مالية للأمير بشير على ابرهيم باشا، وهي تريد ان تقدمها لابنه الخديوي اسماعيل ، ليتصرف بها على ما يشاء . فنقل الباشا هذا الحديث الى الخديوي ، فبعث هذا يسألها ما هي غايتها من مجيئها الى مصر ؟ فأجابته بأنها لا تقصد الا التشرف بمقابلته . فرأى في جوابها هذا تأكيداً لما نقل اليه عن الأسناد المالية ، فطفق يطاولها ويؤجل مقابلتها .

ولم يطل مقامها حتى ملت التأجيل ، وضجرت من الانتظار. ثم مرضت فبعثت الى الخديوي تطلب منه ان يأذن لها بالرجوع الى لبنان ، فأذن لها وأعطاها خمسمائة ليرة مصرية ونفقات سفرها وسفر حاشيتها .

ابحرت حسن جهان من بور سعيد على باخرة نمساوية انزلتها في حيفا ، لأنها لم تشأ ان تنزل في بيروت . فحملت ، من هنالك الى الجيّة ، في محمل ، على ظهر بغلة ، عادلتها فيه خادمتها . وكان المرض الذي حملته معها من مصر مرضها الأخير ، توفيت به في برج البراجنة سنة ١٨٧٥ . وشيد لها ضريح قرب كنيسة البرج القديمة نقشت على بلاطته هذه الأبيات لشاعر مجهول :

ألا اهموا الدمعَ ! حُسنُ جَهانَ سارت
عن الدنيا ، وجـدّت بالمسيرِ

لها مجد الامارة من شهابٍ ،
قرينةُ سيّد العَليا الشهيرِ

ومُذ أمّت جِنان الخُلد ، تبغي
لقاء قرينها المولى البشيرِ

فحازت في النعيمِ ، أَرَختُ ، يسراً
وقد باتت على أعلى سريرِ

(١٨٧٥)

والبلاطة التي نقشت عليها هذه الأبيات رفعت عن الضريح بعد ان هدمت الكنيسة القديمة ، وبنيت الكنيسة الجديدة ، ووضعت في بعض زوايا هذه الكنيسة مهملة ، على قيمتها التاريخية .

اميرة لبنانية

سعدى وسعود

هما كريمتا الامير بشير الكبير؛ وقد تقدم ذكرهما في اثناء الكلام على امهما الاميرة حسن جهان .

تزوجت الاميرة سعدى الامير سليم عبد الله حسن الشهابي، قبل زواج اختها الاميرة سعود بالامير خليل بشير احمد اللمعي. فان هذه الاميرة لم تتزوج الا قبل وفاة والدها بخمسة وعشرين يوماً . وقد جهّزها والدها جهازاً فاخراً ثميناً لا تزال لائحة البيان به محفوظة ؛ فكأن الأمير ، وقد أخرجها الى غـــير اسرتها ، اراد ان يعزّزها في عين الختن وعيون أهله .

ولكن الاميرة سعود لم تتهنّأ بجهازها، لانها بعد عودتها وأمها واختها من الاستانة ، لبثت شبه محبوسة في منزل زوجهـا في قرية المجذوب تجاه برمانا . ذاك لان زوجها كان شديد الغيرة عليها لا يدعها تخرج من باب دارها .

وقد توفيت قبل امها واختها ، بدليـل احد الشروط التي اشترطتها امها في وقفها قناة مياه القاع والصفا ؛ فقد كان هـذا الشرط يقضي «بتقدمة قداسين يوميّاً ، الى خمسة عشر قدّاساً ،

عن نفس الأمير ونفس بنته سعود» . وصك شروط الوقف مؤرخ في التاسع عشر من نيسان سنة ١٨٦٥ ، ومختوم بخاتم المطران بطرس البستاني . فوفاتها اذاً سبقت هذا التاريخ .

ومن المرجّح انها توفيت في سنة ١٨٦٠ ، في بيروت ، ودفنت في قبّة خاصة في مقبرة المدوّر .

وأخبرني الأمير بشير ابو اللمع ، وهو ابن سلفها ، انه لما ألغيت مقبرة المدوّر ، نقل اللمعيون بقايا الاميرة سعود ، فيما نقلوه من بقايا انسبائهم ، الى مدفن آل أبي اللمع الخاص في رأس النبع في بيروت .

ويروى ان هذه الاميرة تركت ، بعد موتها ، جهازها مكدّسا في الصناديق لأنها لم يتسنّ لها ان تلبس منه شيئاً ؛ فورثته بنتاها الأميرتان ورد زوجة الامير قبلان ابي اللمع ، ولمياء زوجة الامير امين ابي اللمع اولاً ، ثم زوجة الامير قبلان بعد وفاة زوجها واختها .

أما الاميرة سعدى فقد نزلت اولاً في الجية ، ثم انتقلت الى حدث بيروت تعيش عيشة هانئة الى ان توفاها الله في سنة ١٨٨٤ ، فدفنت في دير مار انطونيوس في بعبدا .

ملابس الاميرات ،
حماماتهن ، مسرحهن

ملابس اميرات لبنان

تقلّبت الازياء النسائية ، في لبنان ، على اطوار شتى ، شأنها في كل اقطار العالم ، حتى وصلت الى الطراز الحديث الذي نراه في عهدنا هذا .

وما ادرانا ما سوف تكون عليه في العهود المستقبلة ، فليست هي الا صفحة تاريخية عن الجيل الذي يتداولها ، ومرآة تنعكس عليها تقاليده وعاداته واذواقه .

وربما كانت عيوننا اليوم تلذّ بالنظر الى ما يمثّل ازياء جداتنا ؛ ولكنها لا ترضى عنه كل الرضا لما فيه من مخالفة لأذواقنا ، في حين ان اسلافنا كانوا يرونه جميلًا فاتناً ، لأن عيونهم ألِفته ، واذواقهم انِست به .

ويقول لنا مؤرخو لبنان ان ملابس جداتنا القديمات كانت على زيين : احدهما زيّ المارونيّات الذي حملنَه معهن من شمالي سوريا ، وهو زيّ جميع نساء الشعوب القديمة تقريباً : ثوب مسترسل الى الارض يغطّي الجسم كله ، نسيجه من القطن الابيض ، بسيط الشكل ، وربما كان ازرق ، او بنفسجياً ،

وبرقعٌ يغطي شعر الرأس من أمام ووراء ؛ وأساور عظميّة او نحاسية تحوّلت بعدئذ الى فضيّة ، أو ذهبية ، بحسب منزلة التي تلبسها ومستوى ثرائها ؛ وخلاخيل في الارجل ؛ وعصابة للجبهة تُرصف عليها نقودٌ نحاسية ، وربما كانت عند الغنيّات فضية ، أو ذهبية ؛ ومداسٌ من جلد في الارجل .

وقد وصف الاب دنديني ، موفد الحبر الاعظم في سنة ١٥٩٦ ، زيّ المارونيات قال: « تتدثّر نساء الموارنة بأكسية ساذجة تَمَسُّ الارض ذيولها ، وتستر ابدانهن كلها . وهي في الغالب من النسيج القطني الابيض ، او البنفسجي ، او الازرق . ويسترن رؤوسهن بمناديل تغطي شعورهن . واذا صادفن غريباً تجنّبنه ، او سترن وجوههن بتلك المناديل . ويتشبه بعضهن بالنساء المحمّديات، فيلبسن الاساور في معاصمهن والخلاخيل في ارجلهن ، ويعصبن على جباههن عصابات مزيّنة بالحجارة الكريمة؛ وبعضهن يضعن على رؤوسهن عرقيات رصفت عليها نقود وقطع ذهبية محكمة الصنع ، أو يلبسن قَلَنْسُوة طويلة دقيقة تدعى طنطوراً ؛ ولا يُعنين بتجعيد شعورهن ، ولا بتخضيبها ، ولا باتخاذ شعور مستعارة . »

اما الزيّ الثاني فزيّ اللواتي قدِمن ورجالهن من جنوبي لبنان ، وهو عربي مؤلف من قميص طويل، ينسدل من العنق

الى القدمين ، وكوفية وعقال ؛ وقد تلفّ لابسته كوفيتها على وجهها فلا تظهر عيناها .

وهذا الزي، على ما ارجّح ، زي المسلمات، وقد تطور ولا ريب ، فصار على الشكل الذي وصفه الاب دنديني في أواخر القرن السادس عشر ، وذاك حيث يقول : « يتألف زي المسلمات من قميص وجلابية ومُضَرَّبية وسراويل وخفين ؛ ويسترن رؤوسهنّ بعرقيات ، أو طاقيات من صوف ، أو جوخ ، أو حرير أحمر أو أزرق ، مطرزة بالذهب أو الفضة ؛ ويرصّعها بعضهنّ بالنقود الذهبية ، ويقال لها : صُفّة ، أو شكلة ؛ ويجدلن شعورهن ضفائر يرسلنها على اكتافهن ، أو يضممنها بعصابة خصائل خصائل ، ولا يجعّدنها فوق جباههن . ووجوههن طبيعية فلا تصنّع ولا طلاء . وهن يتختّمن بالخواتم ويتقرّطن بالحلق ويلبسن في معاصمهنّ الأساور ، كل ذلك إما من ذهب ، أو من معدن غيره ، بحسب غنى المرأة ومنزلتها في بيئتها . واساورهن عريضة في صفحة واحدة ... ولا يقصرنها على المعاصم فتحسدها الارجل ، وانما تنال هذه نصيبها من الخلاخيل . »

« وهذه الملابس والحلى كانت تتزين بها المرأة في منزلها ؛ وأما اذا خرجت الى الأزقة والشوارع فكانت تأتزر بازار من كتانٍ أبيض ، أو من قطن أو حرير اسود ، يحجبها حتى

يديها عن الانظار ؛ وتقنّع وجهها بقطعة من قماش أبيض او أسود لا يمكن العين ان تستشفّه ؛ ويتنقّب بعضهن بنسيج اسود شفّاف ، فينظرن غيرهنّ ولا ينظُرُهنّ .

«وتقتدي بهنّ في زيهنّ نساء طوائف اخرى كاليهوديات والروميات والسريانيات والتركيات . ويلبسن في اقدامهنّ نوعاً آخر من الأحذية ، يسمّى الجزمة ، يقيها الوحل والماء في فصل الشتاء . »

غير ان هذين الزيين لم يلبثا ان انتهيا الى زيّ لبسته النساء اللبنانيات جميعهن من اميرات وشيخات ومثريات وفقيرات ؛ ولم يكن يختلف ثوب الواحدة منهن عن ثوب الاخرى بسوى الفخفخة والاناقة ومظاهر المنزلة الاجتماعية والثراء . وهو يتألف من قباء «قنباز» طويل مشقوق من أمام ، أو من أعلى المعطفين حتى المنطقة . وله أزرار نحاسية ، أو فضية . وقد بقي لهذا القنباز أثر عند بعض النساء المسنّات في الجبل الى عهد غير بعيد .

ويلبسن تحته قميصاً من الحرير ، وقد يكون مطرزاً ؛ ويوضع على الرأس شبكة ، وهي كيس حريري تلفّ به الذوائب ، شبيه بالشبكة التي تلبسها السيدات والاوانس في هذه الايام ؛ وفوقها طنطور ، وهو حلية اسطوانية الشكل ، اشبه بالقرن ، محدّدة الاعلى ، يكون ارتفاعها عند الاميرات

ذراعاً ، وعنـد سواهن نحو ثلثي الذراع . حتى ان الأميرات والشيخات والمثريات ، من لابساته ، كنّ يَرين مشقة في نزعـه عن رؤوسهن ، فيضطررن ، عند النوم ، الى إبعاد فرشهن عن الجدران مسافة تسع قرنه، او كان يُخرق لهن خروق في الجدران يدخلن فيها قرون الطناطير حينما يضّجعن .

ويلبس هذا الطنطور فوق طربوش من فضة ، أو من ذهب منقوش أو غير منقوش ، يربط تحت الذقن ، ويطرح عليـه الشنبر ، اي الملاءة .

والذي يشاهد صورة الاميرة خاصكية زوجة الامير فخر الدين الثاني، المثبتة في هذا الكتاب، يرى ان ثوبها مؤلف من سراويل مقفلة رجلاه من اسفلهما ، عند الركبة ، بجزمة؛ وفوقه صدرتان احداهما مطبقة على الصدر والاخرى لها عرى وازرار ، مفتوحة من اعلاها واسفلها ومزرورة من عنـد الزنار ؛ وفوق كل هذا قنباز مفتوح من اعلاه الى أسفلـه ، وممسك على الخصر ، من امام ، ببكلة ، ومشكوك طرفه الايمن بالزنار شكلاً ودلالاً. وعلى رأسها طاسة ، عليهـا عذبتان من الذهب ، علقت بها من جهة قفا الرأس ملاءة طويلة تنسدل على ظهرها. وقد امسكت هذه الاميرة بيسراها طرف الملاءة الأيسر ورفعته غنجـاً الى محاذاة كتفها ؛ وامسكت جهته الاخرى بيمناها ، وسفرت عن وجهها ليتجلّى جمالها في هذا الإطار البديع .

ولا يختلف زي الاميرة خاصكية عن ملابس الاميرات والنبيلات اللبنانيات اللواتي شاهدتهن زوجة لامارتين في الحمّام ونقل زوجها، عن لسانها ، صفتها في كتابه «رحلة الى الشرق» قال :

«حينما نزعت الإماء والجواري عن الاميرات الملاءات البيضاء، التي تسترهن ، برزن في ثيابهن الفخمة وجواهرهن الكريمة ، وملابس مختلفة الالوان والاشكال ، وجواهر متباينة الروعة واللألأة ، ولكنها متشابهة في شكلها وزيّها . وهذه الملابس مؤلفة من سراويلات من الحرير المقلّم ، ذات ثنيات واسعة ، معقودة على الخصور بزنانير من الحرير الاحمر ، ومقفلة فوق العراقيب بخلاخيل من ذهب ، او فضة ؛ ومن فوقها قُمص مدبّجة بالذهب ، مفتوحة على الصدور ، ومعقودة عند منتصفها، واكمامها ضيقة من عند الآباط ، ثم تتسع وتنشقُّ من المرافق الى الأكفّ . وتغطي الصدور سدول من الحرير الشفاف ؛ وفوق كل هذا معاطف (سلطات) من المخمل ناضرة الالوان، عليها فراء من جلد السمّور ، ومطرّزة بالذهب على كل الوُصُل المخيطة .

والشعر فرعان : ينسدل فرع منه على العنق ، ويترامى الآخر جدائل تتدلى حتى كعاب الارجل ، مطوّلة بضفائر من الحرير الاسود تُقلّد بها الشعور . وتنحدر من اطراف هذه

الجدائل أهداب حلزونية الشكل من ذهب ، او من فضة . وثقل هذه الشعور ، مما علّق بها ، يجعلها تتمايل على طول القامات. والرؤوس مزدرعة بأسماط من اللؤلؤ وبنقود منظومة، وبازهار طبيعية مختلطة كلها معاً ، ومنثورة، في شكل بديع ، على تلك الشعور اللماعة ، التي ينتشر منها أرَج الجواهر والازهار؛ فكأنما بعثرت عليها علبة من الحجارة الكريمة المختلفة الالوان .

وشدّ ما يبرز فتون هذه الزينة على رؤوس الفتيات اللواتي تراوح اسنانهن بين الخامسة عشرة والعشرين . وتضع بعض نساء على رؤوسهن طاسات من الذهب مخرّمة تخريم احقاق الفناجين الفضية، تترامى منها سلاسل قصيرة دقيقة، علقت فيها بلوطات من الذهب وعذبات من اللؤلؤ المنظوم تتماوج على اقفية الرؤوس .

وليس في سُوقهن أجربة وانما هي عارية . وفي اقدامهنّ سراميج من الجلد المرّاكشي الاصفر يجرّرنها في مشيهنّ تجريراً. واذرعهنّ مثقلة بالاساور الذهبية والفضية ، واسماط اللؤلؤ المنظوم . وترتمي على الصدور عقود كثيرة تؤلف على التراقي المكشوفة ضفائر من ذهب ولؤلؤ . »

وللاب ماري جوزف ده جيرامب في كتابه « زيارة

لأورشليم وجبل سينا سنة ١٨٣٢» وصف لطنطور الأميرة بدر كريمة الامير قاسم نجل الامير بشير ، وهي التي صارت زوجة الامير قيس بن قعدان شهاب ، قال : «ابنة الامير قاسم في السادسة عشرة من سنّها ؛ وهي نادرة زمانها في الجمال والتهذيب. تضع على رأسها قرناً طويلًا ، وهذا القرن هو زينة كل النساء المتزوجات في لبنان ؛ ويكون طويلًا أو قصيراً بحسب منزلة لابسته الاجتماعية .

«وقد يبلغ طول قرن الاميرات قدمين ونصف القدم، ولهنّ وحدهنّ حق لبسه دون ان يكنّ متزوجات . ويصاغ إمّا من الذهب ، أو من الفضة ، وتضع نساء جبل لبنان فوقه قناعاً فضفاضاً ؛ وولع بعضهنّ به عظيم ، حتى انهن لا يفارقنه لا في الصحة ولا في المرض ، ولا على فراش الموت ، فيمتن متزينات به ، ثم يباع بعد موتهن ويخصص ثمنه بالقداديس لراحة نفس الفقيدة .

« ويوجد نوع آخر من القرون كان يُلبس ، من الرأس ، على جانبه فيستر الاذن ، ويتقدم بصورة بارزة الى ما بعد الكتف . »

ولرستم باز الديري ، في تاريخه الذي لا يزال مخطوطاً ، وصف للطنطور وللازياء النسائية في ايامه ، وكان معاصراً للامير

بشير ورافقه في منفاه ، أُلخّصُه فيما يلي ببعض التصرف ، قال :

« اما كسوة النساء فمؤلفة من طاسة فضّة يصنعها الصائغ ، وينقشها نقشاً محكماً ؛ طولها من نصف ذراع الى ثلثي ذراع ، على الأغلب ، ولكنّ زوجتي الامير خليل والامير امين (ابني الامير بشير) لبستاها في طول ذراع وفي ثخن ساق الرَّجُل ؛ وهذه الطاسة تستدقّ تدريجاً فتكون في ثخن زند رجل معتدل. ويوضع لها في رأسها زرّ كبير مُدبّب مصنوع من خيوط محوكة ، فتكون به مشابهة للمزراق . ويصاغ لها شمشة فضة كسر شفتٍ (شرابة فضّة مخرَّمة) طولها مقدار شبر ، أو يزيد ، تُطلى بالذهب ، وترصَّع بحجارة من زجاج أحمر واخضر وأصفر وأزرق . وتسمّر الطاسة فوق الجبهة ، وتزوّد بحلقتين مركبتين في كعبها ، حلقة فوق كل أُذُن ، وبحلقتين من فوق قفا الرأس ، يركّب فيهما زِناق (سفيفة او نسيجة تشد تحت الحنك الى الرأس) . وهذا الزناق من قصب وحرير يشتغله العَقّاد ، يربط تحت الذقن . ثم تُصنع فارة ، هكذا يسمّونها ، وهي مُنطَّر (نسيج ذو نقوش ملونة ، تحريف منثّر) من أطلس طولها شبر محشوَّة قطناً ، تمسكها شبكة حرير . وفي رأس الفارة قيطانتان تربط كل واحدة بحلقة من الحلقتين اللتين فوق قفا الرأس . وفي الطرف الثاني قيطانتان اخريان تربطان في ضفيرة الشعر .

«وتصنع النساء أيضاً عرقيات كعرقية الطفل ، يحشينها قطناً ، ويضرّبنها (خياطة على شكل دروب) ويسددن فوهة الطاسة من اسفل ، ويوسعنها بقدر فم الجرّة .

«ويلتحق بالطاسة ثلاثة عقوص كل واحد بقدر كوز الصنوبر ، وهو من فضة مفرغة ، وله فم من أسفل في سعة الريال المجيدي . وفي كل فردة من هذه العقوص زر طويل مُفرغ ، ثقيل ، يمكن ادخال الخنصر فيه ، وثلاثة بنود من الحرير الاحمر القانىء يدخل كل بند منها في فردة ، ويعلّق في كل بند شرابة حرير طولها ثلث أو نصف ذراع ، وفي كل بند وشرابته خمسون درهماً .

«وهذه البنود يجدل بها الشعر وتربط الفارة فتثبت الطاسة في الرأس فوق اليأفوخ ؛ ويعصب منديلان مطرزان بحجارة كريمة أو حقيرة .

«أما كسوة البدن فقمباز على الغالب منطّر او كرماسوت عنابي أو شيت ، أو غير ذلك . له زنار يسمينه خُورَنْبه مربع يشبه المشالح التي توضع على الاكتاف ، والقميص طويل من نسيج ستّكروزا ، والسراويل حياكة تعقد تكتّته فوق الازار ويربط بزمة فوق الكواحل . وتلبس في الارجل بوابيج صفراء او سوداء ، اما « المغندرة » فتلبس بنطوفلة ، وهي شبه البابوج . »

ويقال ان الطنطور أُبطل عام ١٨٤٨ ، وأُبدل منه طربوش

خمريّ اللون يوضع عليه قرص من ذهب أو من فضة ، تتدلى منه ثلاث عقائص ذوات عذبات من فضة ، تقرع عراقيب الارجل .

ولبست النساء بعد ذلك القفويّة — نسبة الى قفا الرأس — وهي مؤلفة من خمسين جديلة حريرية تُعلّق بأطرافها نقود فضية أو ذهبية تدعى بالنوازي ، مرصوفة على قطعة من نسيج يُعصب بها الجبين ؛ ثم أُبدل منها بنود حريرية خمرية اللون تُعلّق عليها نقود صغيرة فضية أو ذهبية ، وفي رأس كل بند دينار كبير ، وترسل على الكتفين ، وتسمى الصفا .

وارتدين ما سمّينه بالمالَوِيّة ، وهي ثوب من جوخ مزركش . ثم تغيّر زي الشعر الى ما سمّوه بالصنوبريات ، وهي ضفائر من ذهب على شكل السجق ، والسجق كناية عن عذبات صغيرة من حرير تعلق على دائر السلطة (معطف نسائي) وعلقن على الصدور الكردان ، ولعل اسمه محرّف عن الكوردون ، وهو سلك من ذهب يعلق في العنق ؛ وعصبن الجباه بالمقدّر ، وهو شبه عصابة من مخمل عليها قطعة من الماس، تدعى ناطوراً، مزركشة بالذهب .

وكانت البنات الاميرات يحتذين السرموجات الحمراء المحددة الرؤوس ، وتلبس بنات العامّة مداساً واسعاً من جلد أحمر أو أسود له اذنان عن جانبيه .

وبقيت هذه الازياء سائرة حتى سنة ١٨٦٠ ، فتحوّلت الى اشكال اخرى لم اجد لها ذكراً في ما كتب عن الازياء ، وانما استقيت صفاتها من المسنّات والمسنين ؛ ولست ارى بأساً في ذكرها وان لم تتعلق بالاميرات وحدهن ، وانما كانت ملابس النساء جميعاً .

كان اول ثوب لُبس مؤلفاً من قميص يتدلى قطعة واحدة من العنق حتى القدمين، وفوقه سلطة من المخمل طويلة الكمين حتى اصابع اليدين ؛ وستر الرأس بطرَحات بيضاء او سوداء من النسيج المُعيّن (التول) او من المَلَس (الحرير) . ثم لُبس فسطان ، سُمي فسطان بأوضه ، مُخصَّر ، ضيّق من امام ، مقصوص على شكل بولكه (معطف نسائي) مرهَّل من اعلاه ومزموم من اسفله . ثم ثوب مصري مؤلف من سراويل فوقه قنباز من جنسه ولونه ، مشقوق عن جانبيه . وبين الازياء اللبنانية ، التي جمعها الامير موريس شهاب مدير المتحف الوطني ، ثوبٌ حريري من هذا الطراز سراويله اصفر وقميصه فستقي .

وجعلت المثريات هذا الثوب ، ايضاً ، من جوخ ، وحبكن اطراف فتحتي القنباز بالقيطان الحريري ، ولففن على خصورهن شالات من الحرير مخططة ، بعضها يسمّى شال كشمير، وبعضها

شال طِرما ؛ وأرخين ضفائرهن على ظهورهن معلقات باطرافها الغوازي الذهبية ؛ ولبسن في ارجلهن اللساتيك والكنادر من جلد ومن قماش .

وانتشر كذلك زي فسطان يدعى ملاكوف، ولعله روسي الاصل ، وكن يضعن على ذيله طوقاً حديدياً واسعاً يفترش الارض اذا جلست التي ترتديه . وثمة زي آخر مؤلف من منتيان وتنّورة[1] وبولكه صغيرة . وحشيت الاوراك بوسائد . وقد امتدّ وضع هذه الوسائد الى الايام التي سبقت الحرب الكونية الاولى ، وحشت الصغيرات الصدور صدورهن بمثلها .

ثم سار زي الفسطان الطويل الذيل . وكانت الفتيات يعلّقن على ظهره ، بقطع حريرية ، ملاقط صغيرة من فضة يمسكن بها ذيله لئلا يكنس الارض . ووضعت في المعاصم حِلى سُمّيت السُّليتات ، وهي كناية عن سلاسل ذهبية محبوكة في عرض خمس اصابع ، منقوش عليها اشكال حبّ العدس او السنابل ، ولها اقفال تقفل بها . وكانت المثريات يقفلنها بالماس . وعُلّقت على الصدور عقود من الكهرمان واللؤلؤ ؛ وضُفر الشعر ولُفّ على دائر الرأس لفّ العقال ، او سدل على الاكتاف، ثم رفعته النساء وحبكنه على رؤوسهن، وتركن

---

١ سميت تنورة لانها على شكل التنور في استدارتها ، وهي لفظة سريانية .

السديل للبنات اللواتي كانت اسنانهن تقضي عليهن بلبس القُمص المخصّرة . ثم ارتديت فساطين ملوّنة مزينة بالشرائط (ضفيرة تنسج من الحرير والقطن) . ولُبست في الارجل لباشين (ضرب من الاحذية طويل الساق يحبك شريط في ثقوب فتحتي ساقه) . وطال امر هذه اللباشين عند البنات حتى الحرب الكونية الاولى تقريباً .

اما الازياء اللبنانية الحديثة فقد بدأت بالتطور منذ عام ١٨٩٠ فلبست الفساطين القصيرة قليلًا ، الضيّقة دائرة الذيل ؛ وعقص الشعر ورفع على قمة الرأس من امام ووراء . وفتحت صدور السلطات ورفعت قباتها واقفة تغطي الرقبة حتى اصول الشعر ؛ ثم الغيت واعتيض منها بالقبات القليلة الارتفاع اللينة . وفتحت الأكمام حتى المعاصم ، وزُرّتْ هناك اطرافها ، ثم قصّرت الى الاكواع .

هكذا مشت الأزياء متقلّبة متحوّلة من شكل الى شكل الى ان وصلت الى الاشكال التي نراها اليوم .

حمامات الاميرات

جاء في بعض اقوال العرب : الحمّام نعيم الدنيا ؛ وفي هذا دليل بيّن على ما كان للعرب المتحضرين من شغف بالاستحمام . ولو لم يكن ذلك لما كنا نرى في التواريخ ذكر مئات الحمامات في المدن العربية الكبرى كدمشق وبغداد وقرطبة والزهراء الأندلسية ومصر القاهرة ؛ ولما كنا رأينا امراء لبنان المعنيين والشهابيين يتأنقون في بنيان حماماتهم ، ويزخرفون سقوفها وجدرانها وصحونها بالمرمر والرخام والفسيفساء بما فيها من نقوش وتخريم وتوشية .

ولا تزال حمامات الامير بشير، في قصره الأثري، ناطقة بما كان لامراء لبنان من هوى في تشييد الحمامات والتنعّم بالاستحمام .

وقد وصف لامارتين هذه الحمامات في كتابه « رحلة في الشرق » بعدما ازاره اياها الامير بشير قال :

« ثم نهضت معه (اي مع الامير) ليريني حماماته بنفسه، فإذا هي مؤلفة من خمس غرفٍ ، او ست ، مبلطة بالرخام

المربّع ، ومبلطة ببلاط من كلس ودقيق الرخام ، ومدهونة بذوق وإتقان . دَهنها صُنع دمشقيون حاذقون. وفيها فوارات تخرج من منافذ في البلاط ، فتغير الماء بارداً او فاتراً او حاراً ينشر حرارته في الغرف .

« وثمة غرفة حمام ببخار الماء الحار لم استطع البقاء فيها الا دقيقة لشدة حرارتها . وقد وقف في كل غرفة عبيد بيض ، حسان الوجوه ، عارو الصدور ، يلفّون على سوقهم شالات من الحرير الخام، مستعدون لتحميم من اراد الاستحمام؛ فاقترح علي الأمير ان استحم معه ، فأبيت وتركته بين ايدي العبيد ، وقد تهيأوا لنزع ثيابه عنه . »

ويظهر ان لامارتين رأى حمامات الأمير حين لم يكن قد تمّ بناؤها كلها ، فوصفها كما كانت يوم زارها ، لا كما صارت اليه بعد ان كملت . فغرفها لم تبقَ خمساً أو ستاً ، وانما تناهز التسع ، كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، فيها حوضان ينصب في احدهما الماء البارد ، وفي الآخر الماء الحار، من افواه تماثيل من النحاس . وثمة غرف خاصة للتدليك فيها مقاعد مبلطة بالرخام . وبين الغرف صحن واسع في وسطه بركة مرتفعة الجدران ، فيها فوّارة ماء ، والى جانبيها دكتان واسعتان مرتفعتان ، كانت توضع عليهما الطنافس والمساند للاستراحة والتزين بعد الاستحمام .

وهذه الحمامات مهورة بكل ما يحتاج اليه المستحمُّ كالموائد والاحواض وانابيب المياه ، وجدرانها منقوشة بصورة حسنة المعاني دقيقة الصنع .

ولم يكن الامراء يتمتعون بنعيم الدنيا الا في ساعات مخصوصة بهم ، ثم يخلونه للأميرات .

وكانت الحمامات للاميرات وغيرهن من النبيلات امكنة يظهرن فيها عظمتهن وفخفختهن واناقتهن ؛ ومعارض لملابسهن الجميلة الفخمة ، وحلاهن الثمينة، وجواهرهن التي كانت تسطع بين أنوار الشموع سطوعاً يبهر الانظار؛ فيتنقّلن فيها من غرف تبعث ببخار الماء الغالي ، فيحلّل عن ابدانهن ما يكون قد علق بها من الادران، الى غرف تصب من حنفيّاتها الماء الساخن؛ ثمّ الى غرف الماء الفاتر، فغرف الابتراد والراحة وتناول الاشربة المرطبة والاطعمة الفاخرة، وسماع الموسيقى والغناء، ومشاهدة الرقص الشرقي تزاوله راقصات من الإماء .

وقد مرّ الكلام في « ملابس الاميرات » على ما شاهدته امرأة لامارتين في الحمام من فخفخة الاميرات والنبيلات وتجمّلهن ، ومختلف زيناتهن .

ولم يكن المعنيون اقلّ عناية من وارثيهم الشهابيين في تشييد الحمّامات، فقد كان لهم في سفح دير القمر، من جنوبيها،

حمام مبني بالآجرّ المغموس بالكلس ، على مساحة ستمائة ذراع مربّع ؛ يتألف من خمس عشرة غرفة ؛ تسير اليه الاميرات من قصورهن بانفاق تتصل بسرداب، طوله يربي على مئتي ذراع ، يمتدّ تحت سوق الميدان الى ان يتصل بالحمام ؛ سردابٍ واسع ، عالي القباب ، حتى لكان في وسع رجلين ان يسيرا معاً ، منتصبين جنباً الى جنب ، مهما طالت قامتاهما وضخمت جثتاهما ؛ وفي وسطه بركة يتدفق ماؤها ، فكأن الاميرات كنّ في عودتهن من الحمام يجلسن اليها بغية التبرد والاستراحة .

ولا يزال من آثاره ، حتى اليوم ، باب ، وزهاء عشرين متراً يسميها الديريون بالسبع القباب ، تجري فيها مياه البلد وسيول الشتاء .

اما اطلال الحمام فقد بقيت حتى بعد سنة ١٨٦٠ ، ثم عدت عليها عوادي الانسان والاهمال فاندثرت .

ولم تكن الاميرات يسرن في هذا السرداب الى الحمّام ، إلا مبالغةً في التحجّب ، فلا تنالهن عيون المتطفلين . وتشدّدهن في الحجاب مُتأتٍّ من إغراق الامراء في صيانتهن وسترهن عن الأبصار . وكان شيوخ الدير يروون لنا ، عن اسلافهم ، انه حينما كانت الاميرات يُردن البروز ليلًا للنزهة في شوارع البلدة وأسواقها ، أو حينما يشأن الذهاب بالسرداب الى الحمام ،

يخرج في النهار منادٍ ينادي في الديريين أنه محظورٌ على أي كان منهم ، أرجلًا كان أم امرأة ، ان يخرج تلك الليلة من منزله ، أو ان يفتح نافذة من بعد غياب الشمس الى الفجر ، ولا يَلُم المخالف الا نفسه .

وقد شذّت خاصكية زوجة فخر الدين الثاني عن عادة التحجّب ، يوم كانت في توسكانا ؛ فان الصورة التي بقيت عنها تدلّ على انها سفَرت هنالك ، وكشفت عن وجهها . ولعلّ بقاءها ، خمس سنوات ، في بلاد كل نسائها سوافر جعلها تخلع الحجاب ، وجعل الامير يتسامح في امر سفورها .

وليس ادلّ على مظاهر العظمة والفخفخة ، اللتين كانت الاميرات يحطن بهما انفسهنّ ، من وصف لامارتين لحفلة تحميم عروس اميرة ، اقيمت في بيروت ، ودعيت اليها زوجته ، فأخذ عنها صفتها وصفة الحمامات قال :

« الحمّامات مكان عامّ يمتنع دخول الرجال اليها ، إلا في ساعات معيّنة ، ليبقين مخصّصات بالنساء ؛ واذا اتفق ان اميرة عروساً ارادت الاستحمام ، قبل عرسها ببضعة ايامٍ ، وفاقاً للتقاليد ، خصّص بها الحمام طول النهار الذي تختاره .

وغرف هذه الحمّامات ضعيفة النور لا تضاء بسوى نور ضئيل ، يرشح اليها من قباب فيها فتحات صغيرة ، مستديرة ،

عليها كرات من زجاج ملوّن ؛ وهي مبلطة بالرخام صفوفاً مختلفة الالوان ، مرصوفة بفن واتقان . وجدرانها مكسوّة بالرخام والفسيفساء ، او منقوشة في شكل بارزٍ ، مربّع مستدير ، أو في أشكال اعمدة عربية الطراز .

وحرارة الغرف تدريجية ، فالغرفة الاولى في حرارة الهواء الطلق ، والثانية فاترة ، ثم تزداد قوة هذه الحرارة درجات درجات حتى الغرفة الاخيرة ، حيث البخار الغالي ينبعث من الاحواض ويملأ جو الغرفة بحرارة تكاد تكون خانقة .

ولا توجد أحواض محفورة في صحون الغرف ، وانما توجد حنفيات تجري متسلسلة ، فتصبّ على البلاط ماءً بمقدار نصف اصبع ، يجري في مجارٍ دقيقة ، يتجدد دائماً فيها .

وليس الاستحمام ، في الشرق ، بالتغطيس ، وانما هو بدفق الماء الساخن دفقاً متوالياً ، وبتأثير حرارة البخار في الابدان .

كان الحمام ، في ذاك النهار ، مخصصاً بعروس أميرة ، وقد دعي اليه زهاء مائتي سيدة من نبيلات المدينة وضواحيها ، وبينهن بعض الاوروبيات ؛ فجاءت كل واحدة من الاميرات والنبيلات ملتفة بثوب واسع يستر ثيابها الفخمة ، وكلهن مصحوبات باماء سود ، او بجوارٍ بيض حرّات ؛ وكلما وصل موكب من مواكبهن اجتمعت نساؤه كتلاً ، وجلسن على

حصر ومساند معدّة في الرواق، فتأتي جواريهن وينزعن عنهن الملاء ليبرزن في ملابسهن .

ولما اجتمعت المدعوّات كلهن عزفت موسيقى عنيفة بالنقّيرات والمزامير ، وغنت نساء ، مرتديات ثياباً من الانسجة الشفافة الحمراء، باصوات حادة محزنة ؛ ولم تنقطع هذه الموسيقى طوال النهار ، فكانت تنشر في ذاك المشهد البهج ضجيجاً صادعاً .

ثم برزت العروس تصحبها امها واترابها ، لابسة ثوباً فخماً ، ويتوارى شعرها وساعداها وعنقها وصدرها تحت عناقيد من النقود الذهبية واللآلىء ؛ فتواصت المحمّمات بها ، فنزعن عنها ما عليها من الحلى قطعة قطعة . وكانت النساء يتعرّين، في خلال ذلك ، ثم ابتدأت مراسيم الاستحمام المختلفة ، والموسيقى تعزف اللحن نفسه ، والصياح يتراسل من غرفة الى غرفة . فاستحممن اولاً بالبخار الحار ؛ ثم صُبَّ عليهن ماء معطر ؛ ثم جاء دور اللعب والدعابات ، فأخذن بألعاب واعمال مضحكة، وهن يصحن صياحاً حاداً تقاطعه القهقهات، فعلَ التلميذات الصغيرات اللواتي يؤخذن الى السباحة . تراشقن بالماء ، وغطّس بعضهن رؤوس بعض في الاحواض الملأى ، ودفق بعضهن الماء على بعض ، والموسيقى تعزف عزفها بين قهقهات الفتيات العربيات ، تثيرها هذه الالعاب الصبيانية .

وحينما انتهين خرجن من غرف الاستحمام الى غرف التبرّد والراحة ، فجدلت كل أَمة وكل جارية شعر سيدتها الرطب ، وعقدت لها عقودها ، وألبستها أساورها وحلاها وثيابها الحريرية وسلطتها المخملية . ثم بُسطت بينهنّ مساند على حصر الردهة المغسول صحنها ، فقعدن وأُتين بسلال وصرر من الحرير ملئت بالزاد المحمول معهنّ . وهذا الزاد كناية عن معاجين ومربيات من كل الانواع التي يتميّز بها العرب والترك ؛ فأكلن ، وشربن شراب الليمون المثلج . ثم أُتيت النساء المسنّات بالغلايين والنارجيلات ، فتعالى الدخان المعطّر حتى ملأ اجواء الغرف ؛ وجيء بالقهوة في فناجين صغيرة ، موضوعة في احقاق من الذهب والفضة ، مخرّمة ، فظلّت تدار عليهنّ ، وتدور الأحاديث بينهنّ ، الى ان برزت الراقصات يرقصن ، على الموسيقى عينها ، الرقص المصري في حركاته الغريبة المتشابهة .

ولما انقضى النهار ، وهنّ على هذه الحال ، وارخى الظلام سدوله ، عاد الموكب النسائي بالعروس الى بيت امها . »

ومهما يكن من اطلاق لامارتين العنان لخياله الشعري في هذا الوصف ، فاننا نرى فيه صورة محسوسة لحفلات الاستحمام الجميلة البهجة التي كانت تحتفل بها اميرات لبنان .

مسرح الاميرات

ليس مسرح الاميرات الا دير القمر ، فهي التي نشأن فيها ، الا بعضهنّ ؛ وهي التي كانت سماؤها مستظلاً لهنّ ، وأرضها مخفقاً لأقدامهن . حتى اللواتي لم ينزلنها منهن ، لم يكن لهنّ منصرف عن الالمام بها. ومن تُراه في تلك العهود يستغني عن التعريج الى عاصمة المعنيين ، ثم الشهابيين ؟

ودير القمر قديمة العهد، ويقدّر انها ترجع الى زمن الفينيقيين ، بدليل المدفن الفينيقي الموجود تحت غابة الصنوبر ، وهي غابة تقوم على الجبل المشرف على الدير من شماليها .

وهذا المدفن ، الذي لا تزال آثاره حتى اليوم ، محفورٌ في صخر نُقشت عليه صورة قمر .

وربما بني على هذه الصورة ذاك التقليد القائل ان البلدة سمّيت دير القمر لأنه كان فيها معبد للاله القمر ، وهو الاله الذي كانت تعرّفه الوثنية القديمة باسم « سِنّ » .

وثمّة دليلان آخران حسّيان يدلان على قِدَم الدير: احدهما فوق الشربين ، ذكره البحّاثة الديري جرجس صفا نعمه ، بعد

ذكره للمدفن الفينيقي المتقدم ذكره ، وقال عنه : « انه كان معبداً وثنياً ، استُخدم لزمنٍ خلوةً للدروز ثم هُجر . »

والدليل الآخر هو اسم الشالوط ، الينبوع الذي يشرب منه الديريون : فهذا الاسم آرامي يعني المنحدر ، او المنصبّ او الشلال ، ولا ريب انه كان في قديم الزمان ينحدر انحدار شلال ، فدعي بذلك .

ويرجع بعض المؤرخين بناء دير القمر الى القرن الخامس للمسيح : فقد جاء في كتاب « أعمال الرسل للبولنديين » ١٥ شباط — ١٢٦ نقلاً عن تاريخ قديم : « ان القديس ربّولا السُميساطي قدم بيروت في أيام القيصر زِنون الايزوري ، امبراطور الشرق من سنة ٤٧٤ الى سنة ٤٩١ م ، وتعبّد لله في جبال لبنان الموحشة . ثم شيّد بمساعدة القيصر نفسه ، ومساعدة يوحنا حاكم بيروت ، ديراً كبيراً ، في وسط الجبل ، كان يعيش فيه مع رهبانه بين الجبلين ، وهم وقتئذٍ يتسكعون في ظلمة الوثنية ؛ ففنّد حججهم في اعتقاداتهم ، واجتذبهم الى الدين القويم ، الا نفراً منهم . »

ويرتئي الاب مرتين اليسوعي في صفحة ٢٣٨٩ ، من كتابه « تاريخ لبنان » الذي لا يزال مخطوطة ، « ان هذا الدير الذي بناه الراهب ربّولا هو دير القمر . »

على ان الاب جوزف غودار اليسوعي يرى ، في كتابه «البتول في لبنان» ، رأياً آخر ؛ فهو يرجّح «ان دير القمر هي بقيّة الدير ، الذي ذكر المؤرخ البيزنطي ، بروسيد أوديف ، ان الامبراطور يوستنيانوس بناه للقديس فوكاس في سنة ٥٥٠ فوق جبل بورفيريون[1] الواقع تحت دير القمر من جنوبها الغربي .»

وكيف دار الأمر ، فإن هذين الرأيين لعلمين من اعلام المؤرخين ، يبرهنان برهاناً قوياً على قدم دير القمر .

ومما لا نزاع فيه ان هذه البلدة كانت بين الاقطاعات الصليبية الاثنتين والثلاثين ، أُعطيتها رهبانية سيدة الالمان التيتونية في آذار سنة ١٢١٦ .

وتقول التقاليد انه كان لهذه الرهبانية دير حيث تقوم اليوم كنيسة سيدة التلة ؛ وان الحجر المثبت في جدار الكنيسة الجنوبي ، المنقوش عليه نقشاً بارزاً ، صليب مرتكز فوق هلال في وسطه نجمة ، هو من بقايا ذاك الدير التيتوني .

بيد ان اسم دير القمر يتوارى منذ انهيار الدولة الصليبية ،

---

١ بورفيريون : هو النبي يونس ، أو الجبة ، بين الدامور وصيدا ، سمي هكذا في عهد الفينيقيين لان موضعه كان اما مصنعاً للبرفير ، او مصبغة لنسيجه .

ولعلّ ذلك متأتٍّ من خرابها كلها ، أو بعضها ، على اثر الحروب الصليبية ؛ حتى ان المؤرخ اللبناني ، صالح بن يحيى ، لم يذكرها في كتابه « تاريخ بيروت » بين اقطاعات اسرته التنوخية ، في حين انه ذكر ما حواليها كبعقلين ، ودير دوريت ، وكفرحمّل وغيرها .

وقد لبثت الدير خراباً الى ان رمّمها الامير فخر الدين المعني ، الاول .

وفي اهتداء هذا الامير الى مكانها اسطورة تقول : « انه بينما كان رعيان آل معن يرعون مواشيهم في الغابات التي كانت حيث تقوم دير القمر ؛ تلك الغابات التي بقي منها أثر في غابة الشربين المتوغّلة في القدم ، المشرفة على الدير من شمالها الشرقي ؛ عطش الكلب الذي كان يرافقهم ، فتغلغل في الغابات ثم عاد اليهم يقطر لِحياه وفمه ماء ؛ فراقبوه في اليوم التالي ، حتى اذا ذهب ليشرب اتّبعوه ، فكشفوا ينبوع ماء عذب ، وكان اسم كلبهم شالوط فسمّوا الينبوع باسمه . ثم أطلعوا اميرهم على ما كان من الأمر ، ولما لم يكن في بعقلين ماء ، عزم على بناء بلدة قرب الشالوط ، فبنى دير القمر .

ويمكن الاستدلال على تاريخ اعادة بناء الدير من التاريخ المنقوش على بلاطة ، مثبتة في الجدار القائم شمالي باب الجامع

الغربي ، وهو سنة ٨٩٩ هـ اي ١٤٩٣ م : ذاك بان المسلمين لم يكونوا يختطّون بلداً الا اختطّوا في البدء جامعاً، ثم بنوا البلدة حواليه ؛ فترميم الدير اذاً كان في سنة بناء الجامع .

ولكن من أين أُخذ اسم دير القمر ، ولماذا سمّيت به ؟

قلنا ، فيما تقدم من الكلام ، ان بعض التقاليد تُرجع هذا الاسم الى المعبد الذي كان هناك للاله القمر ؛ على ان في هذا التقليد موضعاً للشك: لأنّ كوكب الليل لا يسمى في الآرامية قمراً، وانما يسمى فيها ساهوراً، ومعلوم ان الآرامية هي اللغة التي سميت بألفاظها جل قرى لبنان ، ان لم نقل كلها .

وفي الدير أسطورة قديمة تقول: ان هذه البلدة سمّيت بهذا الاسم للصخر، الذي وجد مدفوناً في التلة، التي بنى عليها كنيسة سيدة التلة الموارنة الاول ؛ يوم جاؤوا تلك المنطقة يرئسهم الاب عبد الله المعربس ليقيموا بين الدروز .

وقد كان اول شيء فكر فيه الاب عبد الله ومن قدم معه ان يبنوا كنيسة لهم ؛ فاختاروا سفح التلة ، وكان عليه انقاض بناء قديم . ولما حفروا ارضه ، ليضعوا اساس البناء ، وجدوا صخراً منقوشاً عليه صليب ، ففرحوا حينما رأوه ، وادركوا ان مسيحيين قبلهم نزلوا هذا المكان . ثم شاهدوا على الحجر نفسه هلالاً ونجمة ؛ وكانوا يعلمون ان القمر ، في المسيحية ،

رمز للسيدة العذراء ، والنجمة انما هي شمس رامزة الى السيد المسيح ، وان الشمس محاطة بالهلال رمز الى الامومة الإلهية . فأيقنوا انه كان ، في ذلك المكان ، مقام للسيدة العذراء ، فخصصوا كنيستهم بها ، وسمّوها سيدة التلة ؛ وسموا البلد بدير القمر ، تيمّناً بذاك الحجر ، الذي اثبتوه فوق الباب في جدار الكنيسة الجنوبي . وقد سُدّ هذا الباب اليوم ، ولكن الحجر لا يزال حيث وضع ؛ وصارت سيدة التلة ، منذ ذاك الحين ، حامية دير القمر .

غير ان هذا الرمز المنقوش على الحجر يمكن ان يرمز ايضاً الى عقائد وثنية : فالهلال عند الفينيقيين رمز لعشتروت ؛ وكان الصليب عند الوثنيين من التعاويذ التي تُستدفع بها الشرور ؛ فمن الممكن ان يكون هذا الحجر بقية من معبد الاله القمر الذي تحدّث به التقاليد .

ولا نرى الآن بداً من ان نسائل متى قدم الموارنة الاول الى دير القمر ، أقبل المعنيين ام في عهدهم ؟

اذا رجعنا الى تاريخ الامير حيدر ، الذي طبعه نعوم المغبغب ، نرى ان اول نفرة نفرها نصارى كسروان وجبيل الى نواحي الشوف كانت في سنة ١١٤٤ . فالامير حيدر يقول في كلامه على حوادث هذه السنة : « في هذه السنة ظهرت

البدعة في بلاد جبيل وكسروان ، من رجلين كانا يقولان ان الله تعالى لم تكن له روح مخلوقة ، وطبعه غير الاوجاع والآلام[1] . ووقع الشقاق والاختلاف بين نصارى تلك البلاد . وحين بلغ الملك الظاهر برقوق[2] جهّز العساكر ، وغزا نواحي كسروان ، واقام الحرب عليها سبع سنين ، واحرقت عساكر المسلمين تلك القرايا التي في بلاد جبيل وكسروان ، وقطعت الاشجار ، الى ان تولى صلاح الدين الايوبي يوسف اول ملوك الايوبيين[3] ؛ ولم يبقَ عامراً سوى حصن معراب ؛ وهربت نصارى كسروان وبلاد جبيل الى نواحي بلاد الشوف . »

وعلق نعوم المغبغب على هذا بقوله : « قبل هذه السنة لم يوجد من النصارى الموارنة في بلاد الشوف ولا عائلة ، لان جميع الموارنة فيه اتوا اليه من بلاد جبيل وكسروان . »

---

١ يشير الى بدعة اليعاقبة الذين انكروا ثبوت الناسوت للسيد المسيح .

٢ لم تكن سنة ١١٤٤ من عهد المماليك، وانما كانت من عهد الفاطميين، وكان السلطان يوم ذاك في يد الخليفة الحافظ بن محمد (١١٣٠ – ١١٤٩)، اما الملك الظاهر برقوق ، وهو احد سلاطين دولة المماليك البرجية ، فقد تولى من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٣٩٢ ، وفي قول الامير حيدر ما فيه من الخطأ التاريخي .

٣ تولى صلاح الدين السلطنة بعد العاضد آخر الفاطميين وذلك من سنة ١١٧١ الى سنة ١١٩٣ .

فهذه النفرة كما يدل تاريخها حصلت في ايام المعنيين ، لان الامير معناً جاء الشوف برجاله في سنة ١١١٩، ويقول الخالدي في تاريخه : «ان الامير معناً سكن دير القمر.» فدير القمر اذاً كانت قبل المعنيين الذين دخل الموارنة الشوف في ايامهم ، وكان اسمها معروفاً قبل العثور على ذاك الحجر .

ولعلّ اسم الدير آرامي الاصل ، وكان يُلفظ قبل استعرابه دير قمر ، او دير قمرا ، بدون أل التعريف العربية ، ومعناه: الدير الاحمر ، او الدار الحمراء ؛ وربما سميت به البلدة لاحمرار تربتها ، أو لأمر آخر نجهله ؛ بيد ان الديريين لا يزالون حتى اليوم يدعون منطقة الكروم الواقعة شمال شرقي الدير باسم الجلّ الاحمر .

اما الامير فخر الدين الاول ، فمن الممكن انه عرف اسم هذه البلدة إما من عثوره على سكان قدماء فيها ، أو لأن سكان القرى المجاورة اعلموه به ، لأنهم ولا بد كانوا يعرفونه ، فأبقاه لها. ولكنه زاد على جزئه الثاني أل التعريف العربية ، فصيّره عربياً ، وتحوّل معناه من الدار الحمراء الى الدار البيضاء ؛ لان لفظة القمر تعني ، في العربية ، البياض ، سمي بها كوكب الليل لبياضه .

ولا تزال لفظة القمر بمعنى الاحمرار في كلامنا العامي ، فنحن

نسمّي كل رغيف ، جاء من الفرن محمرّ الوجه ، رغيفاً مقمّراً .

رمّم فخر الدين الاول دير القمر وبنى جامعها ، وأنشأ فيها منازل لأهله ؛ غير ان الآثار المعنيّة الباقية ، اذا استثنينا منها الجامع ، تُعزى الى حفيده فخر الدين الثاني . فهو الذي ترك القصر ، الذي تُسمّى سطوحه بسطوح الخرج ، لأن الامير بشيراً الشهابي الثالث كان يوزع فيها على الناس خرجاً . والخرج في الاصل الخراج ، واريد به هنا ما يخرج حصة من الطحين ، فلقبت السطوح به واكتسب الامير كنيته أبا طحين . ويقال أيضاً انه لقّب أبا طحين لرخص الطحين في عهده. وترك فخر الدين الثاني كذلك دار الحكم التي فوق سوق الميدان ، والقيسارية ، والبوّابة الأثرية المخرّمة حجارتها العكارية نقوشاً هي غاية في الدقة والفن ، والقبة التي تحت الشربين ، وسميت أيضاً قبة المشانيق .

والى جانب هذه الآثار المعنية تقوم الآثار الشهابية : القصر الذي بناه الامير ملحم ببوّابته التي تضارع في جمالها البوابة المعنية ؛ والسراي التي يعزى بناؤها اليه ؛ والسراي الاثرية التي يرجّح ان اقبيتها الضخمة التي تسمى المصبنة معنية ؛ وان في بنائها العلوي بعض بناء معني ، رممه الامير يوسف الشهابي ، وزاد فيه ردهته والقسم الغربي منه ، فنسبت السراي اليه من جرّاء ذلك ، وقيل لها سراي الامير يوسف .

وقد خلط بعض المؤرخين في تاريخ بناء الامير يوسف لهذه السراي، فقالوا: انه بناها في سنة ١٧١٢، مع ان الامير يوسف ولد في سنة ١٧٤٧، فهو اذاً، في زعمهم، بناها قبل ان يولد بخمس وثلاثين سنة ؟

هذه البلدة، دير القمر، كانت اذاً مسرحاً للأميرات اللبنانيات؛ وتلك الابنية الفخمة الباقية، والابنية التي تهدمت وبقيت آثارها، كانت منازل لهن. ولو ان جدرانها اتصلت بلسان ناطق لقصت علينا قصص اولئك الاميرات في غبطتهن وكدرهن، وفي افراحهن واتراحهن، وفي حبهن وبغضهن؛ قصصاً ما كان أروعها وأعذبها، لو قُدّر لتلك الجدران العتيقة ان تكشف عنها !

امیرات لبنان

امیرات لبنان ٥

اولى الاميرات

ديدون الصورية (بانية قرطاجنة) ١٥

امیرات العهد المعني

طيبة المعنية ٢٩
ام قرقماز المعنية ٤٣
نسب التوخية ٥٣
نساء فخر الدين وبناته ٦٢
جهان الشهابية ٧٤

امیرات العهد الشهابي

ام دبوس اللمعية ٧٩
شمس الشهابية ٩٣
جبوس الارسلانية ١٠٦
حسن جهان ١١٨
سعدى وسعود ١٣١

ملابس الأميرات – حماماتهن – مسرحهن

ملابس اميرات لبنان ١٣٥
حمامات الاميرات ١٤٩
مسرح الاميرات ١٥٧

T

Back

S

*PB-39115
5-01T
CG

B

6

Date Due

Demco 38-297

PERMA-BOUND®
PAT. NO.

NYU - BOBST
31142 02824 1282
DS80.75 .B87
Amirat Lubnan

AST